# وليم أف نيوبره مؤرخاً للحروب الصليبية في الشرق
# من سقوط القدس إلى الفتح الإسلامي
# (1099– 1187م)
## (دراسة تاريخية نقدية )

بحث من إعداد
د/ على أحمد محمد السيد
أستاذ تاريخ العصور الوسطي
بكلية الآداب – جامعة الإسكندرية (فرع دمنهور)

# وليم أف نيوبره مؤرخاً للحروب الصليبية في الشرق
# من سقوط القدس إلى الفتح الإسلامي
# (1099– 1187م)

شغلت الحروب الصليبية أذهان الناس وحركت أقلام المؤرخين وأثارت خيال الشعراء والفنانين في أنحاء الغرب الأوروبي أجيالا بعد أجيال، وكان من الطبيعي أن يهتم راهب مثل وليم أف نيوبره William of Newburgh بتسجيل بعض أحداثها في معرض تناوله لتاريخ إنجلترا في مدونته التي تحمل عنوانHistoria Rerum Anglicarum ، وتتألف من خمسة كتب، ينقسم كل منها إلى فصول متفاوتة العدد، ويتكون كل فصل من عدة فقرات، والمدونة عبارة عن سرد لتاريخ لإنجلترا منذ الفتح النورماني لها عام 1066 م. حتى عام 1197م، وقد لقي هذا العمل المصير نفسه الذي حظيت به معظم الأعمال ذات الأهمية الخاصة المتعلقة بتاريخ إنجلترا في العصور الوسطي، إذ تم نشرها في مجموعة تاريخ إنجلترا منذ باكر العصور المعروفة باسم سلسلة اللفائف. Rolls series (1).

هذا وقد اعتمد الباحث على الترجمة الإنجليزية للنص اللاتيني التي نشرها الباحث سكوت ماكلتشى Scott Mcletchie عام 1999 م. تحت اسم: تاريخ وليم أف نيوبره، رسالة افتتاحية "The History of William of Newburgh, The Prefatory Epistle"، تعديلا منه لما كان جوزيف ستيفنسون Joseph Stevensonقد نشرها بالإنجليزية منذ حوالي قرن ونصف، بحيث شكلت الجزء الرابع من القسم الثاني من مجموعة مؤرخي إنجلترا الكنسيين(2) The Church Historians of England

ولد مؤرخنا وليم William في بلدة بريدلينجتون Bridlington بمقاطعة يوركشير Yorkshire في عام 1135 أو 1136 م..، وتلقى تعليمه في دير مدينة نيوبره Newburgh الذي اتبع النظم الأوغسطينية (3) في الرهبنة، ومن هنا اقترن اسم

المؤرخ بالدير والمدينة الواقع فيها، وفي عام 1182 م. عاد إلى يوركشير بعد أن هجر زوجته الثرية، وهناك شرع في تدوين كتابه الشهير(4) الذي يبدو بوضوح أنه دونه قبل فترة قصيرة من وفاته في يوركشير 1198 م.، والمؤرخ ينتمي إلى مدرسة المؤرخين الشمالية؛ إذ سار على نهج كتابة المؤرخ بيده المبجل Bede the Venerable المتوفى عام 753 م.، ونظرا لكون وليم أف نيوبره راهبا؛ فقد كان معزولا عن الحياة العامة، وكتابه يتسم بكثير من الغموض إلا أنه على درجة كبيرة من الأهمية والقيمة خاصة بالنسبة للفترة المبكرة من حكم الملك الإنجليزي هنري الثاني(1154-1189م) HenryII (5)

والواقع أن تصنيف مدونة هذا المؤرخ يضعها بين مصادر تاريخ إنجلترا، إلا أنه بعد فحصها تبين أنها تضم مادة تاريخية أصيلة وثيقة بتاريخ أوروبا الوسيط بصفة عامة. ولما كانت إنجلترا لها يد طولى في أحداث الحركة الصليبية في الشرق، وكذلك بقية دول أوروبا الغربية التي لعبت دورا قد يكون أكثر أهمية في تلك الحروب، ولما كانت المدونة قد اشتملت على تأريخ لهذه وتلك، كان من الطبيعي أن تتضمن المدونة أيضا تأريخا لعلاقات تلك القارة الخارجية مع الشرق خلال فترة كتابة المؤرخ الممتدة منذ النصف الثاني من القرن الحادي عشر حتى أواخر القرن الثاني عشر الميلاديين وهى الفترة التي واكبت شطر الحملات الصليبية وربما يزيد.

وعليه وقع اختيار الباحث لموضوع بحثه تحت عنوان "وليم أف نيوبره مؤرخاً للحروب الصليبية في الشرق من سقوط القدس إلى الفتح الإسلامي (1099 - 1187م). دراسة تاريخية نقدية".

وبحكم انتماء الباحث للمنطقة العربية فقد وجد من المناسب أن يستل من المدونة جانباً محدداً من الموضوعات ذات الصلة بالوطن، فكانت فكرة التركيز على موضوع الحركة الصليبية عند المؤرخ النيوبريّ، ويلاحظ هنا التدرج الواضح في مدى اهتمامه بهذا الأمر وتوسعه كلما تقدم في الكتابة، حتى سيطر هذا الموضوع على المادة التاريخية الواردة في كتابيه الأخيرين، ولهذا بالطبع ما يبرره؛ ذلك أن المؤرخ اهتم بشكل أوضح بتسجيل الأحداث

التاريخية الصليبية التي عايشها وعاصرت حياته، وتتمثل أبرزها في أحداث الحملة الصليبية الثالثة 1189 - 1192 م، وصولا إلى آخر أحداث تلك المدونة والمتعلقة بالحملة الصليبية لهنري السادس Henry VI إمبراطور ألمانيا (1190 - 1197 م.)، والعام الأخير شهد وفاة كليهما. وعليه أقمت دراستي على أساس تناول المادة التاريخية الخاصة بالحركة الصليبية في الشرق، حتى حدث فتح صلاح الدين الأيوبي للقدس في عام 1187 م، بصفتها وحدة موضوعية تاريخية واضحة المعالم، أما الأحداث التي وقعت في العقد الذي يتلو ذلك فأجد أنها جديرة بأن تدرس على حدة في دراسة أخرى على اعتبار أن صاحب المدونة يعد واحدا من المؤرخين الرواد لهذه الحقبة، كما أن أسلوبه في الكتابة عنها قد اختلف باتسامها بالمعاصرة والإفاضة والقدرة النقدية، ومن ثم يتمثل دور الباحث في إلقاء الضوء على أهمية المدونة وتتبع المادة المغمورة المتعلقة بالحركة الصليبية طوال فترة قيام مملكة بيت المقدس الصليبية في القدس فقط.

ذلك كان هو شأن الفترة الزمنية موضوع البحث، أما من ناحية الموضوع فلا شك أنه من الصعب دراسة المادة الصليبية في المدونة دون مضاهاتها بمثيلاتها التي في المصادر الصليبية المعاصرة؛ ولذا تخيرت أبرز الأعمال منها فكان كتاب "أعمال الفرنجة الحاجين لبيت المقدس" للمؤرخ الصليبي فولشر أف شارترFulcher of Charters ، معتمدا على الترجمة الإنجليزية للكتاب(6)، ثم كتاب " تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحر" لمؤلفه وليم الصوري William of Tyre، معتمدا على الترجمة الإنجليزية له أيضاً(7)، أما فيما يتعلق بالسنوات القليلة التي توقفت فيها كتابات هذا المؤرخ بداية من عام 1883 م. حتى عام الأحداث الأخيرة في موضوع البحث فقد لجأت إلى تغطيتها باستخدام الحولية التي تعد تذييلا للكتاب السابق، وانتسبت لرجلين هما: إرنولErnoul ، وبرنارد Bernard وكيل الخزانة المنشورة باللغة الفرنسية القديمة(8)، وكذلك لجأت في الفترة ذاتها إلى مؤلف روجر أف هوفدن , Roger of Hoveden وعنوانه" حوليات روجر أف هوفدن، تاريخ إنجلترا وبلاد أوروبية أخرى في الفترة من 732 م إلى 1201 م (9).

وعلى هذا النحو فإن ملامح المنهج المتبع تتضح من خلال تقديم وإبراز المادة التاريخية الخاصة بالحركة الصليبية عند وليم أف نيوبره مرحلة بعد مرحلة، وحتى يمكننا تقييم كل منها فلا مناص من مضاهاتها ومقارنتها بالمادة الواردة عند أقوى الكتابات المعاصرة لكل مرحلة؛ لتوفير الخلفية التاريخية الضرورية على ما يأتي، فالمعروف أن المؤرخ فولشر أف شارتر سجل مدونته بحيث شملت أحداث الحملة الصليبية الأولى منذ الدعوة لها حتى عام 1127 م وتدعمت تلك الكتابات بكتاب وليم الصوري في الفترة ذاتها، لذا كانت مدونتاهما أساساً لتبيان أوضاع الشرق اللاتيني في تلك الحقبة، ثم يأتي ما سجله وليم الصوري- منفردا في غالب الأحيان بداية من هذا العام حتى 1183 م. - أساساً لإبراز الجانب الآخر من الأحداث التي تستغرقها الفترة. وهكذا يكون الحال بالنسبة لمدونة إرنول وبرنارد، ولكتاب المؤرخ الإنجليزي روجر أف هوفدن اللذان يعدان من أفضل المدونات المعاصرة للسنوات الأخيرة من عمر مملكة بيت المقدس اللاتينية، أي حتى سقوط القدس في عام 1187 م , وبالتالي تم الاستناد في اختيار المدونات الثلاث الأولى إلى أنها تناولت الحركة الصليبية وأن أصحابها يصنفون في العادة على أنهم مؤرخون صليبيون أقاموا في الشرق اللاتيني لفترات، أما اختيار المدونة الرابعة للمؤرخ روجر أف هوفدن فقد اختيرت استنادا على أنه مؤرخ معاصر تماماً للمؤرخ وليم أف نيوبره موضوع البحث، كما أنه مواطن إنجليزي مثله، حيث انتميا إلى المدرسة الاسكتلندية في الكتابة التاريخية؛ فتشابها في ثقافتيهما الدينية، وحرصا على تدوين تاريخ حكامهما الإنجليز. ومن ثم يكون للمقارنة وقع أفضل وبعد أعمق.

بدأت وقائع مدونة وليم أف نيوبره التاريخية بالتعرض إلى الظروف التي دفعت المؤرخ إلى تدوين كتابه التاريخي، فيذكر أنه كلف من قبل أرنولد Ernald رئيس دير ريفو Rievaulxبإنجاز هذا العمل بأجرٍ مادي، الأمر الذي استوجب منه تقديم الشكر على ذلك. ثم انتقل المؤرخ إلى التعرض لجانب من مصادره التاريخية التي اعتمد عليها، فأشار إلى المؤرخ بيده Bede المتوفى عام 753 م. (10)، كما تحدث عن أحد الكتاب ويدعى جوفرى أف مونماوث Geoffrey of Monmouth صاحب كتاب "تاريخ الملوك

البريطانيون History of the British kings "المتضمن كثيرا من القصص الأسطورية عن الملك الإنجليزي آرثر Arthur (11)، ووجه وليم أف نيوبره لكتابه نقدا لاذعا. وما لبث أن تناول المؤرخ وليم الشعوب المكونة للمملكة الإنجليزية من بريتون Britons، ورومان Romans ، وولشيين Welsh ، وإنجليز Angles ، وسكسون Saxons، واسكتلنديين Scots، وجانباً من تصارعهم من أجل إقامة مجتمعاتهم وممالكهم، وفي خط متواز تعرض سريعا لشخصيات تاريخية مثل الإسكندر الأكبر Alexander the Great، ويوليوس قيصر Julius Ceasar ، وجعل من شخصية آرثر – المعروفة في التاريخ الإنجليزي– شخصية أسطورية مشيراً إلى بعض الملوك مثل ألفريد العظيم Alfred the Great ملك وسكس (871 - 899 م.)، ومن خلفوه من ذريته. ثم شرع المؤلف في تكوين وقائع كتابه بادئاً إياه بالحديث عن الملك وليم الفاتح (1066- 1087 م.) الذي ذكره باسم William the Bastard أي وليم الوغد(12).

وإذا ما انتقلنا إلى المادة التاريخية ذات الصلة بموضوع البحث المتعلقة بالحروب الصليبية نجدها بداية تعانى عند وليم أف نيوبره مما تعانيه الكتابة التاريخية لدى مؤرخي أوروبا العصور الوسطي من مشاكل بشكل عام، ولعل إشكالية عدم الالتزام بالسياق التاريخي تعد واضحة في النص الواقع بين أيدينا، ويقر مؤرخنا بنفسه بهذا الأمر في مدونته، ويأتي اعترافه جليا في الفصل الرابع عشر من الكتاب الخامس(13) الذي خصصه للحديث عن تأسيس الدولة الإسلامية إيذانا ببدء الحروب الصليبية بعد صدامها مع الغرب حيث جاء به في أواخر المدونة، وختمه بعبارة " ولنعد الآن إلى ترتيب تاريخنا " توطئة منه لاستكمال الأحداث التي سبقت حملة هنري السادس الصليبية 1197 م، ذلك كان مجرد نموذج لأداء المؤرخ بغرض تنبيه القارئ للأسلوب المتبع، وأوثر أن أقف بشكل أكثر تفصيلا وأعمق تفسيرا لأسلوب كتابته في موضع آخر يأتي في ختام تناول مادته الصليبية كاملة في نهاية الدراسة.

وفي ضوء ذلك يحسن التقديم لموضوع البحث بما ورد على لسان المؤرخ وليم أف نيوبره

نفسه في الفصل المذكور بكتابه الأخير، إذ أن نصه يتصل بمحاولته تفسير قيام الحروب الصليبية بشكل فريد في وضوحه، ورغم نزوع المؤرخ إلى التحامل على المسلمين، وهم الطرف الثاني في الصراع الناجم عن اندلاع الحروب الصليبية، إلا أن الباحث حرص على تقديم جانب مما ورد عن مراحل الإسلام الأولى وحركة الفتوحات الكبرى، التي كانت عنده بمثابة السبب الحقيقي لهذا الصراع وذلك وفقا لما رآه المؤرخ إذ يقول: "وبعد عصر البابا المبارك جريجوري Gregory اشتبك جيش وثني من الفرس ضد المسيحيين واقتلعوا الديانة المسيحية من القدس حيث إنها كانت بلا قوات تدافع عنها(14)". ذلك أن كسرى الثاني ملك فارس أعلن الحرب على الإمبراطورية البيزنطية ووصل بقواته خلقدونيه في عام 608 م.، كما تم للفرس الاستيلاء على سوريا وبيت المقدس في عام 614 م.، وعلى مصر في 616 م.، وكان سقوط بيت المقدس بمثابة كارثة دينية بالنسبة للمسيحيين؛ إذ استولى الفرس على الصليب الحقيقي (صليب الصلبوت) مما أعطى تلك الأحداث صبغتها الدينية؛ فتحفز الإمبراطور هرقل (610 - 641 م.) لصدهم، وتمكن من ذلك في الفترة الواقعة من( 622- 628 م.) (15) في الوقت الذي أخذت فيه قوة ثالثة في البزوغ على المسرح العالمي ألا وهي قوة المسلمين الفتية التي ستغير – بجدارة – وجه التاريخ خلال تلك المرحلة .

ويواصل مؤرخنا روايته في هذا الصدد قائلا: " وقد أعقب الفرس في هذا المسار الهاشميون، وهم الذين بالأحرى يطلق عليهم اسم العرب المسلمين وبشكلٍ أقرب إلى الصحة الهاجريين (16) Hagarenesوهم يعملون تحت قيادة (على حد زعم المؤرخ) محمدالرسول المزيف.....، ولما هفت إليه قلوب من حوله من عشيرته بل وكثير من غيرهم بمحض إرادتهم وأسندوا إليه جميع أمورهم، استغل حماسة وشهوة توسيع نطاق نفوذه بشكلٍ أكبر وذلك تحت زعم التوسع في الدعوة إلى دينه، وكأن ذلك أمر من الله ألقاه إليه؛ فهاجم الأمم المجاورة وبدايةٍ قام بغزو البلاد المسيحية الواقعة في الشرق حيث بلاد الغساسنة ثم ولى وجهه بعد ذلك وشهر سلاحه تجاه الأراضي الخاضعة للدولة الفارسية حيث بلاد المناذرة

وتمكن من تحقيق مآربه بما لديه من حنكة وقدراتٍ خاصة، وهو ما لم يكن له أن يحققه بما لديه من قوة. وعلى الرغم من أنه كان يبدو متديناً في كل أمر، إلا أنه نحح بشتى السبل في قيادة القوم الذين غزاهم نحو خرافته بأن أبقى على شعائرهم كما أبقى على وثنية الفرس الذين أخضعهم إلا أنه لم ينجح في إخضاع المسيحيين، ولم يتمكن من القضاء على اسم المسيح المقدس. ومع ذلك فقد انحصرت المسيحية حتى كادت أن تنقرض في بلاد مصر وليبيا أي الشمال الإفريقي وما بين النهرين أي بلاد العراق وسوريا وهى ممالك الشرق ذات الشهرة العتيدة في اعتناقها الديانة المسيحية فترة ما قبل سيادة المسلمين عليهم(17). ومن الواضح انها عبارات مغلوطة أملتها عليه روحه الصليبية المتعصبة ضد كل ما هو غير مسيحي كاثوليكي ثم استمر المؤرخ في تشويهه لرسالة الرسول (الكريم عليه الصلاة والسلام)، وروى قصصا ملؤها الغلو في الكراهية والبهتان(18)، وكذلك اتهم المؤرخ الرسول بأنه اقتبس بعض تقاليد المسيحيين واليهود وأدخلها في ديانته لكسب ثقة الناس وضرب أمثلة على ذلك: فحرَّم أكل لحم الخنازير، وأقر عملية الختان لإرضاء اليهود، وشرع الغُسل المتكرر( أي الوضوء) تشبهاً بعملية التعميد عند المسيحيين، وأمر بالبر وعدم السكر كما ورد في المسيحية، بينما انغمس في الشهوات وسمح لأتباعه بذلك مدعياً أن ذلك بتصريح إلهى(19)، ومع ذلك كله فقد " كان المسلمون يدعون بأنهم أرقى من قومنا الأوربيين يا اقتصادهم – يا للحزن !- بينما هم يفوقوننا في جلسات السكر والعربدة، يا للخزي !! ."، هذا وقد شغلت قضايا تحريم أو إجازة بعض الأطعمة والطقوس وموقف المسيحية والرهبان منها مقارنةً بالإسلام اهتمام المؤرخ على مدى فقرات (20) .

ما لبث أن انتقل وليم أف نيوبره بعد ذلك إلى الحديث عن المسلمين في المرحلة التالية لوفاة الرسول حيث قال:" ازدادت تلك الطائفة الدينية الوبائية المبنية على الخطأ قوَّة، وذلك بعد أن أصابت عديداً من المقاطعات بالعدوى.....، حيث تمكنوا من الاستيلاء على الجزء الأعظم من العالم؛ إذ أن هذا الرجل النبي محمد ترك من خلفه أشياعاً أخذوا عنه مهارته وقوته في الخداع فأخضعوا أهل فارس الذين كانوا في ذلك الوقت أقوى أمم الأرض قاطبة

حيث دانت إمبراطوريتهم بكاملها لحكم العرب بعد أن استشرى الإسلام فيما بينهم. كذلك اتجه العرب الذين يعرفون أيضاً بالمسلمين إلى آفاق أخرى من العالم بغرض نشر دينهم ونجحوا في ضرب الحصار في ظروفٍ صعبة حول مدينة القسطنطينية، تلك المدينة التي كانت تنعم وبلاد اليونان حيث الإمبراطورية البيزنطية بإخلاصها للمسيحية، وما لبثوا أن شقوا طريقهم إلى أفريقيا، تلك القارة التي كانت تحت الحكم الروماني بيد أنها كانت تئن من وطأة الحروب الأهلية، وبدون عظيم مقاومة تمكنوا من اجتياح هذه الولايات مترامية الأطراف غير مكتفين بالهجوم عليها، وقضوا على المسيحية فيها التي كانت قد انتشرت منذ عصر قنسطنطين الكبير Constantine the Great الإمبراطور البيزنطي 306–337م. وبرز في تلك البلاد أبطال شديدو البسالة في العقيدة: كالشهيد سبريان Cyprian(21)، وواضع النظريات المجيد أوغسطين Augustine هذا الألمعي بحر الحكمة المسيحية(22) .وها هم المسلمون لا يزالون يسيطرون على تلك البلاد حتى يومنا هذا.

لم يكن هذا العنصر الذي لا دين له راضياً عمّا أحرزته المسيحية من نجاحات؛ لأنهم وبإصرار ملؤه الغل قاموا بغزو أسبانيا التي يفصلها عن أفريقيا مضيق ذو عرض غير كبير، واستولوا على جزء مهم منها، وهو الذي يحوزونه حالياً باعتباره امتداداً لديانتهم الوضيعة، كما عبروا جبال البرانس أيضاً التي تفصل أسبانيا عن فرنسا، وتقدموا في مواجهة حماسة الفرنسيين المشتعلة وفقا لمخطط، تحدوهم الأماني آملين أن ينشروا ديانتهم الآثمة في شتى أرجاء أوروبا، كما سبق لهم فعله في البلاد الأخرى، لكن الله القهار الجبار ذا الحكمة، في وسعه أن يوقف هذا السيل الجارف إذا ما شاء(23). وها هم واجهوا من صدهم عن إتمام زحفهم الثائر؛ ففي الوقت الذي تمكن فيه العرب من الانتشار في مملكة فرنسا مستغلين انهيار الإمبراطورية الرومانية كان الفرنج قد قاموا باتخاذ التدابير اللازمة والاستعداد لمواجهة تلك الحملة، ولذا عاد العرب أدراجهم مرةٍ أخرى ورُدوا على أعقابهم إلى أسبانيا".

لعل عرض هذه الفقرات في البداية يعد خير مقدمة تاريخية يمكن أن نستهل بها

الدراسة، ففيها تناول المؤرخ تاريخ صدر الإسلام وأثر ظهور هذه الديانة على البلاد القوية المجاورة لجزيرة العرب من خلال وجهة نظره الشخصية، فتعرض إلى الإمبراطورية الرومانية بعدما أصابها الوهن، وأصبحت عرضة لهجمات بلاد فارس الذين خلفهم المسلمون في عداء الإمبراطورية البيزنطية، وكما رأينا أشارت إليهم المدونة بالعرب أو الهاشميين أو بنى هاجر Hagarenes، وكالت لهم ولرسولهم محمد اتهامات باطلة عديدة، ثم تعرضت لصفات الرسول الخاصة، ونجاحه في إقناع تابعيه بالدعوة؛ لما كان لديه من قدرات ومهارات وحسن بيان، وأنه لم يكتف بأولئك الذين التفوا من حوله، إنما شرع في توسيع دولته على حساب الجيران. وبالفعل ترتب على مهاجمة بلاد فارس أن دخلت في الإسلام، ثم ما لبثت أن انضمت الشام ومصر وأفريقيا وأجزاء كبرى من أسبانيا غربًا، وكان كل ذلك على حساب الوجود الروماني المسيحي فيها. وأدرك المؤرخ دور الفرنجة في وقف الزحف الإسلامي في الغرب عند جنوب فرنسا حيث معركة بلاط الشهداء (732 م. ). وعلى كلٍ فكتابات صاحب المدونة تنم عن أنه اطلع على جوانب من التاريخ والدين الإسلاميين، بيد أنه دائما ما كان ينظر إلى معتنقيه على أنهم مغتصبون للأراضي المسيحية التي كانت خاضعة للإمبراطورية الرومانية دون إدراك منه بارتضاء معظم شعوبها في الشرق هذا الدين، بينما نجد المؤرخين الصليبيين المعاصرين قد درجوا على رد اندلاع الحروب الصليبية إلى رغبة الكنيسة ومسيحيي أوروبا في تخليص الضريح المقدس من أيدي المسلمين بالدرجة الأولى(24). ويستشف من ذلك أن دافع الحروب الصليبية في نظر وليم أف نيوبره يتمثل في الدوافع السياسية، وعلى رأسها الرغبة في إحياء الإمبراطورية الرومانية القديمة باسترداد ما فقدته من أراضٍ من أيدي المسلمين، وهذا يدلل على أن مؤرخنا لم يكن تقليديا في تقييمه للأحداث التاريخية رغم تعليمه الديني، وإن كانت لديه إشارات لا ينتفي معها وجود دوافع دينية أيضا يمكن ملاحظتها في ما ذهب إليه المؤرخ عن الإسلام والمسلمين، وما سمحت به الشريعة الإسلامية أو حرمته، في حالات مثل: إباحة تعدد الزوجات، وتحريم الخمر، وتحريم أكل لحم الخنزير، وإباحة ختان الرجل، وطهارة البدن بالوضوء، وذلك كله في تطاول واضح. ومن

ذلك أيضاً ما ورد في أول إشارة للمؤرخ وليم أف نيوبره عن الحروب الصليبية؛ حيث أطلق عليها الحروب المقدسة، وذلك في الفصل الثاني من كتابه الأول(25).

وفي هذا الفصل شرع المؤرخ في الحديث عن تاريخ إنجلترا بعد وفاة الملك وليم الفاتح (1066- 1086م ) William the Conqueror،وكيف آل حكمها إلى ابنه وليم روفوس William Rufus (1087-1100م) وليس لابنه الأكبر- غير الشرعي- روبرت كارثوس(26) Robert Curthose ، ثم جاء وليم أف نيوبره بمادة تعد أول ما يمكن رصده من تأريخه لأحداث الحروب الصليبية على مدى كتبه الخمسة، حيث قال: "كان روبرت أخو وليم الأكبر- والذي كان من الطبيعي أن يخلف أباه في العرش- أقل عجرفة وشراسة منه، لكنه أثبت أثناء إدارته لدوقية نورمندي(27) Normandyالمحدودة كفاءة أقل، لتؤكد أنه لم يكن صالحاً لإدارة المملكة الإنجليزية، في حين كان في غاية البراعة في التعامل مع السلاح؛ حتى أنه كان متميزاً بصورة واضحة بعظم شأنه وتفوقه بين أكثر قادة العالم نبلاً وذلك أثناء حملته [ الصليبية ] الشهيرة والمجيدة على بيت المقدس.... "، ثم واصل حديثه عن جوانب أخرى داخل المملكة الإنجليزية: كالصراع على السلطة، وظهور هنري الأول Henry I (1100-1135م )، وبعض من أحوالها الدينية .

ما لبث أن عاد المؤرخ ليستأنف حديثه عن الحملة الصليبية الأولى، فذكر ما نصه: " وأثناء فترة حكم الملك هنري الأول أشعل الله حماسة المسيحيين ضد المسلمين؛ إذ كان المسيحيون يمتلكون- بمقتضى شرع الله ومنذ أمدٍ بعيد- حرمات الله على أنها حق موروث، ولعلي أقصد بذلك تلك الأماكن المقدسة التي بدونها لا تستقم حياتنا، وعليه احتشدت أعداد كبيرة من المسيحيين على قلب رجل واحد كرد فعل لما أقدم عليه بابا روما اوربان الثاني Urban II م (1088- 1099م). ومن ناصره في خدمة الرب، الأمر الذي ترتب عليه أن اخترق أشجع أمراء الغرب – الذين ميزوا أنفسهم بالصليب شارة السيد المسيح – ممالك الشرق على رأس جيش ضخم، وبفضل جهودهم الصادقة نجحوا – بعد

مسيرة مرهقة للغاية– في الاستيلاء على بلاد بالغة الروعة مثل: نيقيا Nicea عاصمة دولة سلاجقة الروم الواقعة في إقليم بثينياBithynia ، وإنطاكية Antioch في إقليم سوريا Syria، وأخرها مدينة بيت المقدس ذاتها. وكان واضحاً أن روبرت كارثوس دوق نورمندي هو أبرز هؤلاء القادة، وقد وجد عند إعداده لهذه الحملة العسكرية بالتعاون مع الأمراء المسيحيين الآخرين أن موارده المالية غير كافية، وحينئذ رهن مقاطعة نورمندي إلى أخيه وليم روفوس مقابل مبلغ كبير من المال؛ مما أهله للانخراط في تلك الحملة الجليلة، وبعد أن أنجز مهمته بنجاح عاد إلى بلده بعد غياب سنوات(28)".

هكذا لم يرتب مؤرخنا وليم أف نيوبره أحداثه التاريخية بدقة، ومن ناحية أخرى لم يتطرق إلا شذراً للدور الكبير الذي قام به البابا اوربان الثاني في الدعوة للحرب الصليبية منذ إلقائه للخطبة الشهيرة في مؤتمر كليرمونت Clermont عام 1095 م. وأورد نصها المؤرخ فولشر أف شارتر الذي كان من الحضور والمستمعين لخطبة البابا(29). وبينما صمتت مدونة المؤرخ وليم أف نيوبره عن إيراد أية تفاصيل عن جهود روبرت النورمندي في إعداد جيشه الصليبي، إلا أننا لحسن الحظ نجد تفاصيل ذلك عند المؤرخ فولشر أف شارتر أيضاً الذي إنضم إلى جيش روبرت وكان في صحبته شاهدا للعيان، ومما ذكره أن الأمير اصطحب معه– زوج أخته– ستيفن كونت بُلُوا وشارتر Stephen of Blois and Charters، بالإضافة إلى عديد من النبلاء والفرسان والرجال من النورمان والإنجليز ومن مقاطعة بريتاني Brittany والأراضي المنخفضة، وتزايدت أعداد الجند يوما بعد يوم حتى غَدَوْا يشكلون عدة جيوش، وواصلوا مسيرتهم حتى آسيا الصغرى على هذا النحو(30). ويقرر أحد المؤرخين المحدثين في دراسة أعدها: أن عدد الفرسان الذين خرجوا في جيوش روبرت يقدر بحوالي ألف فارس عدا المشاة(31). وقد صنفت حملة روبرت على أنها فرنسية العنصر؛ نظراً لأنها خرجت من نورمنديا(32). وأوضح لنا فولشر أف شارتر أنه عندما اكتملت الاستعدادات تحركت فرق جيش روبرت صوب الجنوب، فباركها البابا أوربان قبل أن تنتقل إلى السواحل الإيطالية ومنها إلى القسطنطينية، وفي مايو 1097 م. شاركت قوات

روبرت بقية الجيوش الصليبية التي يقودها الأمراء في معارك آسيا الصغرى.(33) كذلك لم يكشف وليم أف نيوبره عن تواريخ أحداث هذه المرحلة بوضوح- في حين كشف غيره عنها- حيث لم يحدد تاريخ خروج روبرت بجيشه في عام 1096 م.، وأن وليم روفوس وصل نورمندي ليتسلمها من أخيه روبرت في شهر سبتمبر من ذلك العام(34).

وفي هذا الإطار وعن زحف الأمراء الصليبيين صوب الشام، اكتفى وليم أف نيوبره بالإشارة إلى أنه رغم قلة الأعداد في جيوشهم، وما لاقوه من عناء في الطريق، إلا أنهم جاسوا ممالك الشرق وتمكنوا من الاستيلاء على جانب منها مثل مدينة نيقية(35) بمساعدة من الدولة البيزنطية، وذلك في 26 يونيو سنة 1097 م. التي استعادت السيادة عليها، ولم يلبث الصليبيون أن تقدموا، وترأس روبرت النورمندي جانبا مهما من الجيش(36). وبعد أن أحرزوا نجاحا ملحوظا، فرضت طموحات قادتهم تحديد اتجاهات جديدة لمسيرتهم الصليبية، فانقسموا إلى شطرين: بأن اتجه تنكريد Tancred ومعه بلدوين أف بولون (البولوني Baldwin of Boulogneإلى قيليقية جنوب شرق آسيا الصغرى المتنازع عليها بين الأرمن والسلاجقة، بينما شق الجيش الصليبي طريقه في بلاد الشام(37). وهذه الوجهة لجيش القائدين تنكريد وبلدوين كانت تعنى البداية الحقيقية في تأسيس الكيانات الصليبية الرئيسية في الشرق اللاتيني؛ إذ نتج عنها قيام إمارة الرها كأول إمارة لهم هناك .

وحتى هذه المرحلة من الحملة الصليبية الأولى نلحظ أن المادة التاريخية عند مؤرخنا جاءت مختصرة غير وافية؛ مما تطلب استكمالها من مصادر أخرى، وذلك فيما يتعلق بدور الإنجليز في الحملة الصليبية الأولى، وفي الواقع فإن صمت المدونة عن هذه الأحداث لا يمكن تبريره إلا ببعد صاحبها الزمني عنها، فضلا عن اصطباغ الحملة بعنصرها الفرنسي النورمندي، ومن ثم لم تجد لها وقعا قويا عند مؤرخ إنجليزي رغم الوحدة السياسية التي كانت تجمع الإقطاعية بالدولة الإنجليزية .

وفي هذا الصدد اهتم المؤرخ وليم أف نيوبره بتقديم عرض موجز لتاريخ مدينة الرها القديم منذ عصرها المسيحي الأول وصولا الي العصر الصليبي، وذلك في مرحلة لاحقة من

المدونة حيث الفصل الثامن عشر من الكتاب الأول(38)، كافتتاحية لأحداث تتعلق بالحملة الصليبية الثانية، والتي أرّخ خروجها بالعام الثاني عشر من حكم الملك ستيفن(39) Stephenأي عام 1147 م. وأرجع سبب قيامها إلى ما سيأتي سرده, وبداية يذكر عن المدينة:" تقع فيما وراء نهر الفرات Euphrates العظيم مدينة الرها حاضرة إقليم ميزوبوتاميا Mesopotamia أي بلاد الرافدين، وهي مدينة نبيلة معروف اسمها الآن بمدينةRohisia ، وبشكلٍ أصوب مدينة Edessa أدسا أي الرها التي أخذت في التبشير بالمسيحية منذ عصر الإمبراطور قنسطنطين الكبير(40)، والمعروف عنها اقتناؤها ذخائر النبي توماسThomas المبارك(41) التي نُقلت من بلاد الهند إلى هناك، ويُشْهَد للمدينة حماسها الشديد والمبارك تجاه العقيدة الكاثوليكية(42)"، ولعل المؤرخ يقصد مذهب الطبيعتين المعروف في ذلك العصر، ثم تعرض لجانب من دور أهالي الرها المتفاني من أجل الدين، وإلى أي حدٍ آثروا التجمع في كنيسة القديس توماس رغم معرفتهم لإقدام الوالي الروماني على قتلهم داخلها، مضحين بأنفسهم عازمين على الشهادة، إبان عصر الإمبراطور فالنز Valens( 364- 378م) الأريوسي المذهب .

وما برح المؤرخ مواصلة استعراض كفاح أهالي الرها الكاثوليك في المرحلة الثانية فيقول: " كذلك حينما قدر الله للمسلمين أن يستأصلوا شأفة المسيحيين والاستيلاء على بلادهم النبيلة- بشكلٍ لا يمكن تصوره- حيث دانت لهم مدن مثل: الإسكندرية، إنطاكية، بيت المقدس ودمشق، فضلاً عن المدن المسيحية الأخرى في مُجمل مصر وسوريا، وتم القضاء على كل ما له علاقة باسم السيد المسيح، ظلت مدينة الرها وحدها تلعب دور حامية حمى المسيحية، ليس فقط في حدود أسوارها ولكن في عموم الإقليم الواقعة في زمامه، وذلك رغم أنها كانت محاطة بكثير من الأعداء شديدي البأس، ومع ذلك لم يتمكنوا من غزوها حتى جاءت الحملة الصليبية الأولى."

ثم انتقل المؤرخ من فوره إلى الحديث عن تاريخ الرها تحت حكم اللاتين- أولى كياناتهم في الشرق- قائلاً: " وبعد وصول الصليبيين طلب أهل مدينة الرها الذين كانوا يعانون من

غارات الأتراك المساعدات من جيشنا إشارة إلى اللاتين؛ فكان أول حاكم عليهم من بلاد غالة بلدوين البولوني أشجع القادة، وأخو جودفري أف بوايون Godfrey of Bouillon الشهير، وعندما اعتلى بلدوين عرش مملكة بيت المقدس- بعد وفاة أخيه جودفرى- حكم الرها عدد من القادة الآخرين الأقوياء(43).

على ذلك، ارتبط التأريخ لمدينة الرها عند وليم أف نيوبره بدخولها المسيحية، ثم شخصية قنسطنطين الكبير وثباتها على العقيدة الكاثوليكية، وبالفعل غدت الرها أحد المراكز الأولى للديانة المسيحية، الأمر الذي جعل كنيستها مقراً لمطرانية بلاد الرافدين(44)،واتخذت المسيحية فيها طابعاً مميزاً؛ حيث أنها ظلت تتكلم السريانية واحتفظت بحكامها وثقافتها المحلية(45) ولذا أكد المؤرخ على فضلها في المسيحية واقتنائها ذخائر الحواري توماس، بيد أنه لم يُشر إلى ما هو أكثر قداسة من ذلك وشائعٌ عند المسيحيين، ألا وهو احتفاظ المدينة بمنديل السيد المسيح(46)، مبرزاً تميزها أيضاً ببقائها على المسيحية- حتى بعد الفتح الإسلامي- مقارنةً بجميع البلاد المحيطة. وفي الواقع يسهل أن نلتمس فضل المدينة عند مؤرخين صليبيين آخرين(47)، وهذا يُعد أمرا طبيعيا تداوله، خاصةً في مرحلة الصراع بين الشرق والغرب.

إضافة إلىً على ذلك فإن هذا العرض من قبل المؤرخ وليم تعوزه الدقة، وتغلب عليه المبالغة في إبراز عمق وشمولية الديانة المسيحية فيما بين أهالي الرها وإقليمها فترة قدرها هو بتسع مئة عام قبل الحروب الصليبية، فالثابت أن المؤرخ تأثر بما شاع عن المدينة من أنها حظت بوعد من السيد المسيح أطلقه لملكها أبجر- الذي عاصره- بأن المجاعة والفناء لن يدخلا أبدا تلك المدينة، وأن أعداءها لن يتمكنوا أبدًا من النيل منها(48)، وهو الأمر الذي لقي صدى وهوى عند الأهالي؛ مما أدى إلى اشتهار المدينة وزيادة فضلها. ومن ناحية أخرى فإن تاريخ المدينة يؤكد وقوعها في أيدي المسلمين في عام 640 م. صلحا في عهد الخليفة عمر بن الخطاب(49)، وظلت الرها تابعة للحكم الإسلامي حتى استولى عليها البيزنطيون في عام 1032 م. على يد القائد جورج مانياخسGeorge Maniaces ، فظلت في

حوزتهم حتى الغزو الصليبي(50)، ومما يذكر أنه عندما دخل البيزنطيون الرها هجرها العرب ومعهم أهلها من المسيحيين الذين ألفوهم(51). وما لبثت أن هاجرت أعداد كبيرة من الأرمن إليها وهيمنوا عليها في عام 1077 م (52)، الأمر الذي جعل أحد الباحثين يصفها بأنها – منذ ذلك التاريخ – غدت بمثابة جزيرة من المسيحيين داخل محيط من المسلمين الأتراك(53). ومن ثم فإن سقوط المدينة في يد المسلمين ثم في يد البيزنطيين الأرثوذكس يقلل من قيمة رواية المؤرخ وليم السابقة من استمرار المدينة قلعة تذود عن المسيحية الكاثوليكية في إقليمها .

أما الأتراك الذين واصلوا غاراتهم على الأرمن داخل الرها– وفقا لما ذكره المؤرخ– فلعلهم أولئك السلاجقة بداية من عصر السلطان ملك شاه (1072 – 1092م )، حيث نجحوا في الاستيلاء على مرعش، فأخذها منهم الصليبيون في أكتوبر 1097م. بالتعاون مع الأرمن. وما لبث أهالي الرها من هذه الطائفة أن ساندوا بلدوين أف بولون في الاستيلاء على مدينة الرها، ولذا سعى إلى أن يكتسب رضاءهم بالزواج من أردا Arda ابنة أحد أمرائهم، فتهيأت أمامه الظروف لتأسيس أولى الإمارات الصليبية في الشرق ومقرها مدينة الرها(54). وعن الخطوة التالية للصليبيين فقد توقف الجيش الرئيسي أمام مدينة إنطاكية، ونجح في إسقاطها في أكتوبر 1098 م. 55) ولم ترد عند مؤرخنا إلا إشارة مقتضبة عن ذلك، بل إنه لم يتعرض إلى مسيرة الجيش حتى وصوله إلى مدينة بيت المقدس وفرض الحصار عليها، بيد أنه اكتفى فقط بالإشارة إلى سقوطها في أيديهم، وتولى جودفرى أف بوايون الحكم فيها في يوليو 1099 م.، وإذا ما كان المؤرخ قد أحجم عن الوقوف على هذه الأحداث تفصيلياً، إلا أنه في موضع آخر تحدث عن فضل المدينة المقدسة لدى المسيحيين وتاريخها القديم، وكان أبرز ما ذكره عنها: " أن الله اصطفى تلك الأرض وباركها"، حتى جاء الصليبيون في عام 1099 م.، وطردوا المسلمين منها في روح ملؤها الإصرار والهمة، وهذا تأكيد على إرادة الله بما كان للمسيحيين من حق وراثي في الأراضي المقدسة(56). وبهذا الحدث نأتي عند نقطة النهاية بالنسبة لوقائع الحملة الصليبية الأولى

عند مؤرخنا .

وحفاظاً على السياق التاريخي نعود لنوصل ما انقطع عند وليم أف نيوبره عن دور روبرت النورمندي الصليبي، حينما ذكر أن أقصى ما شرف به هذا القائد اشتراكه في إسقاط هذه المدينة المقدسة، وكذلك مشاركته لهم في الانتصار على الفاطميين في معركة عسقلان في أغسطس 1099 م.، ويقول عنه:" وبعد أن شعر أنه أدى واجبه المقدس بنجاح غادر الأراضي المقدسة عائدا إلى وطنه نورمنديا في عام 1101 م.، بعد غياب سنوات". بيد أنه أرجع ما حققه روبرت من نجاحات إلى حدوثها في عهد الملك هنري الأول، وهوالذي حمل لقب هنري الأصغرHenry the Younger ، وذكر عنه أنه: " رجل ودود، وأن نجمه أخذ يبزغ تدريجياً، حتى تمكن من تأمين عرشه وممتلكاته من إخوته غير الشرعيين والنبلاء الطامعين.(57)". ويوضح المؤرخ وليم الصوري ذلك، فروى أنه حين عودة روبرت وجد الأمور قد تبدلت تماما، فقد حدث– أثناء تأدية واجبه الحربي المقدس– أن توفي أخوه الأصغر وليم روفوس دون وريث، الأمر الذي يؤول معه حكم إنجلترا إليه، غير أن أخاه هنري قد أشاع أن روبرت أصبح ملكا على بيت المقدس، ولم تعد لديه نية العودة، فنجح بهذه الخديعة في تبوء العرش بدلاً منه، وعبر هنري البحر بقواته ونازل أخاه روبرت وأسره وألقى به في السجن، حتى وافاه الأجل وآلت ممتلكاته إلى أخيه الملك. واللافت للنظر أن تأريخ هذه الأحداث لم يرد عند وليم أف نيوبره إلا في اقتضاب(58)، والذي يلاحظ أنه سجل تاريخ عودة روبرت في عام 1101 م.، بينما سجله روجر أف هوفدن في العام السابق عليه سبتمبر 1100م(59)، أما ستيفن كونت بُلوُا فقد عاد ثانية إلى فلسطين في عام 1102 م.، غير أنه قضى نحبه في ساحة القتال ضد الفاطميين ضمن أحداث حملة الرملة الثانية(60)، ولم تشر مدونة وليم لهذه الحادثة .

من ثم لم يخص مؤرخنا صاحب المدونة أحداث الحملة الصليبية الأولى في شقيها– وأعني بهما: ما يتعلق بتأسيس إمارة الرها، ثم ما يخص الاستيلاء على كل من إنطاكية وبيت المقدس– باهتمام واضح أو تفصيلي، حتى تلك الإنجازات التي تتعلق بالإنجليز بوصفه مؤرخا

إنجليزيا، الأمر الذي كان واضحاً عند غيره من المؤرخين المعاصرين، وقامت عليها دراسات حديثة تناولت المادة الواردة عندهم بالتحليل والدراسة(61)، وعليه يمكن القول أن ما قدمه المؤرخ من مادة تاريخية عن الأحداث المتقدمة في الصفحات السابقة لا تعدو أن تكون مادة يغلب عليها التعميم دون التدقيق، اللهم إلا ما يخص مواطنه الأمير روبرت النورمندي الذي حظي منه بتسليط بعض الضوء عليه، كذلك يلاحظ أن المؤرخ اهتم بتاريخ عودة روبرت النورمندي إلى بلاده ووضعه الإقطاعي في ظل حكم أخيه, ناسباً إنجازات إنجلترا في الحملة الصليبية الأولى إلى الملك هنري الأول رغم أنه لم يسعفه الوقت لعمل شيء يذكر، في حين كان الملك الإنجليزي الذي خرجت الحملة في عهده هو سلفه الملك وليم روفوس. وعليه نخلص إلى أن وليم أف نيوبره غير جدير بأن يعد من مؤرخي الحملة الصليبية الأولى المبرزين، خاصة فيما يتعلق بمرحلة الزحف على بلاد الشرق والاستيلاء على بيت المقدس؛ نظرا لشح ما ورد في كتاباته في هذا الصدد، إضافة لعدم التدقيق والتعمق في تناول أحداثها مقارنة بالأعمال المصدرية الصليبية الأخرى التي تم إقرانها بالنص .

ما لبث أن استأنف وليم أف نيوبره حديثه عن مدينة الرها فترة الحكم الصليبي بعد أن صارت حاضرة لأولى الإمارات الإفرنجية في الشرق الإسلامي، حيث تناول باقتضاب أميريها الصلِيبِيَيْن اللذَيْن خلفا بلدوين الأول عليها، ووصفهما بالقويين، حيث ذكر: " وكان جوسلين JocelynI الأول آخر أمراء الرها الأقوياء؛ إذ حاول هو أيضاً التمسك بالدين المسيحي، وفي ظل حكمه وصحتها حكم ابنه قُدِّر لأحد القادة الأرمن الخائنين – الذي كان من الحُكام المحليين وآلت إليه إحدى القلاع الهامة لمجاورتها السور بحكم الوراثة– أن يكون سببًا في تسليم المدينة للأتراك؛ ذلك أنه كانت لديه ابنة فائقة الجمال، افتتن جوسلين الثاني بها فاختطفها واعتدى عليها، وقد فُجِعَ الحاكم الأرمني لما حدث لابنته من اعتداءٍ على شرفها، ولكنه أخفى حزنه وآلامه بمهارة, لحين أن يشمل انتقامه بإعدادٌ أكبر، وفي ليلة عيد الميلاد25 من ديسمبر 1144 م أكثر المناسبات قداسة–ً وبينما كانت الصلوات المقدسة مقامة داخل الكنائس وفقاً للطقوس المسيحية، أدخل هذا الخائن الأتراك سراً إلى

المدينة بموجب اتفاق مسبق فاندفعوا عاملين السيف في الأهالي العُزل أثناء مراسم الصلوات في أمان، وقاموا بذبح رئيس الأساقفة، بينما كان واقفاً عند المذبح حسبما ورد إلينا(62), وقد وجد المعتدون في هؤلاء الآمنين الفرصة المواتية لمباغتتهم واستحلال دمائهم؛ إذ كانوا متعطشين لدماء المسيحيين بلا ارتواء. وهكذا وعن طريق الخيانة، تسبب جوسلين- تلك الشخصية المختلة الفاجرة- في تسليم المدينة العتيدة – التي ظلت ترفع شعار المسيحية مدة تسعمائة عام- إلى الأتراك، ومن ثم سقطت المدينة في أيدي المسلمين بعد أن ظلت تحافظ على استقلالها لعدة عصور، متخذة موقف المدافع عن الديانة المسيحية، وخضعت لأكثر الأمم وضاعةٍ على وجه الأرض. وإضافة إلي ذلك واصل الأعداء عصفهم بالإقليم؛ فتمكنوا من اجتياح حدوده من أدناها إلى أقصاها، ونجحوا في استئصال كل الوجود المسيحي في الجانب الآخر من نهر الفرات حيث الشرق، بعد أن أُجبرت على الدخول تحت سلطانهم المشئوم.(63).

وللوقوف على مدى قدرة وليم أف نيوبره على التأريخ لإمارة الرها الصليبية، نجده وقد تنبه لقيام أمير يدعى بلدوين- وهو أخ لجودفرى- بتأسيسها، بيد أنه لم يشر إلى الأمير- التالي له وسَمِيَّه- بلدوين أف بورج (1100- 1118م) Baldwin of Bourg كذلك اكتفى بالإشارة إلى أمير يدعى جوسلين ووصفه بصفات القوة تارةً ونعوت الخلاعة والتهتك تارةً أخرى، وبالرجوع إلى المصادر الأخرى يتضح أن جوسلين- الذي أشار إليه المؤرخ بداية- هو الأمير جوسلين كورتناي Jocelyn Courtenay الأول الذي أدار الإمارة (1119 - 1131م.) بقوة واقتدار، أما إشارته إلى الاسم ذاته للمرة الثانية فهي تتفق مع شخصية ابنه الأمير جوسلين الثاني الذي حكم الإمارة (1131- 1150 م.)، أما الأمير الأرميني المشار إليه فهناك أكثر من أمير قدم ابنته أو أخته زوجة للأمراء الصليبيين الثلاثة الأول(64). ومن ثم لم يدرك وليم أف نيوبره وجود حاكمين للرها يحملان اسم بلدوين: بلدوين أف بولون وبلدوين أف بورج، في حين أدرك وجود أكثر من حاكم للرها يحمل اسم جوسلين الذين ينتمون إلى أسرة كورتناي، بيد أنه خلط بين شخص جوسلين

الأول وابنه جوسلين الثاني (الأرمني).

على هذا أيضاً تكون لدى الباحث انطباع بأن المؤرخ بدا متحاملا على الأرمن في إمارة الرها, وما يلبث أن يتأكد لنا هذا الانطباع مرة أخرى عند حديثه عن دورهم في سقوط المدينة في يد عماد الدين زنكي للمرة الأولى في عام 1144م., وقد يكون تكرر ذلك مرة أخرى أثناء أحداث سقوطها للمرة الثانية في يد ابنه نور الدين محمود عام 1146 م.؛ إذ اتهم أحد حكامهم بالخيانة والغدر لصالح الأتراك. وعمّا صدر من كلمات قاسية من المؤرخ في حق المسلمين، فإنه يعكس النزعة الصليبية عنده ويتفق مع روح العصر، في حين كان تصويرهم بالعنف الشديد أثناء استرداد الرها أمر يتجه إلى الصحة، إذ أكدته المصادر الإسلامية أيضاً(65) وكان رد فعل منهم على سلسلة من خيانات الأهالي، كذلك لم تشر الدراسات المتخصصة في تاريخ الرها عصر الحروب الصليبية إلى وجود مؤامرة طرفاها الأرمن والمسلمون ضد الصليبيين وقت سقوطها في يد المسلمين .

وفي المرحلة التالية يستأنف المؤرخ وليم أف نيوبره الحديث عن الحملة الصليبية الثانية – التي كان قد أشار إليها في عُجالة في صدر الفصل الثامن عشر من الكتاب الأول– فذكر أن جيوشها خرجت أثناء فترة حكم الملك ستيفن أف بُلوُا وذلك في عام 1147 م..(66)، حيث قال: "اجتمع حشدٌ لا يحصى من كل الدول والأمم المسيحية عندما سمعوا بما يفيد الإساءة للسيد المسيح– من خلال بعض الصور– لينضموا إلى رحلة حج إلى بيت المقدس(67)"، وأرجع سبب تلك الحملة– التي لقيت اهتمام من الجميع– إلى ما ترتب على سقوط الرها متناولاً ذلك في الفصل ذاته، حيث قال:" نتج عن الفجيعة التي أصابت الجميع عندما ترامى إلى المسامع ما ورد في تقرير عن كارثة سقوط الرها بأن نهض أكثر الأمراء المسيحيين في أوروبا قدْراً وهما: كنراد الثالث Conrad III إمبراطور إيطاليا وألمانيا(68)،1138 - 1152 م ولويس السابع Louis VII ملك فرنسا (1137 - 1180م). وأصبحا على أهبة الاستعداد لحمل راية السيد المسيح، بينما التحق بهما عديدٌ من النبلاء والأشراف، وأعدادٌ لا تحصى من الناس من شتى الأرجاء المسيحية في أوروبا "،

ولعله ذلك التقرير الذي حمله هيو أسقف جبلة Hugh Bishop of Jabala وخرج به من القدس في عام 1145 م. إلى البابا يوجينيوس الثالث Eugenius III م (1145-1153م) في روما، وربما يكون أيضا ذلك التقرير الذي رفعه الأسقف إلى كل من ملكي ألمانيا وفرنسا في سفارته إليهما، الأمر الذي ترك صداه بين القادة العلمانيين منهم والدينيين، فوجهت الدعوة إليهم للاجتماع في مدينة فيزلاى Vezely (1146م) حيث اتفقوا على توجيه حملة إلى الشرق (69).

وفي الواقع لم تمدنا المدونة بتفاصيل الدور الفعال الذي لعبته البابوية بعامة والقديس برنارد رئيس دير كليرفو St. Bernard of Clairvaux (1091-1153م) بخاصة في الدعوة للحملة الصليبية الثانية(70)، في حين اهتمت بإبراز دور كل من: كنراد الثالث ولويس السابع ملكي ألمانيا وفرنسا فيها، الذين حملا راية السيد المسيح، وذلك في الفصل العشرين من الكتاب الأول.(71)، وهذا يترك انطباعا بأن المؤرخ كان يبدى اهتماما بذكر ما يتعلق بجهود الحكام والأمراء العلمانيين بدرجة أكبر من اهتمامه بدور رجال الدين، ولحسن الحظ وردت عند المؤرخ بعض التفاصيل الخاصة باستعدادات هذين الملكين للزحف في الحملة الصليبية الثانية فعدد الأمم التي انخرطت فيها: " فكان منهم تحت قيادة الإمبراطور:الإيطاليون والألمان، وتحت قيادة الملك الفرنسي: الفلاندرز والفلمنك والنورمنديون والفرنج والبريتونيون والإنجليز والبورجانديون والبروفنساليون والأكويتانيون، سواء أكانوا من رجال الدين أم العلمانيين، ريفيين أم حضر، ومنهم الفارس ومنهم الراجل، وقد بلغت حماسة الملوك وكبار الأمراء أن جابوا البلاد على أقدامهم لإتمام الاستعدادات والتجهيزات، وبعد أن نجحوا في تجميع الحشود الضخمة قاموا بتقسيمها إلى جيشين رئيسيين، بحيث تولى كنراد قيادة الجيش الأول، بينما تولى لويس قيادة الجيش الثاني، وما لبثت أن أخذت القوات في التحرك صوب الشرق(72) .

وفي إطار الاستعدادات أيضا لتوجه الحملة إلى الشرق وفيما يتعلق بالشق الفرنسي منها، يذكر مؤرخنا في الفصل الحادي والثلاثين من الكتاب الأول(73):" أن الملك لويس السابع

قرر أن يصطحب معه زوجته الملكة إليانور Eleanor الابنة الوحيدة لدوق مقاطعة أكويتين Aquitaine وليم العاشر William X ، وبفضل هذا الزواج انضمت الإقطاعية الواسعة إلى التاج الفرنسي، وحذا كثير من النبلاء- المشتركين في الحملة- حذو ملكهم، فاصطحبوا زوجاتهم معهم اللاتي أخذن معهن وصيفاتهن، مما تسبب في ضخامة عدد النساء في المعسكرات المسيحية، التي يجب أن تكون عفيفة طاهرة، ولكنها صارت مجالاً للفضائح التي وُصم بها الجيش(74) ", ولم يقدم المؤرخ تفاصيل أكثر من ذلك عن التدابير الخاصة بالاستعداد للحملة، ولكنه وضع بذلك يده على جانب من المشاكل التي صحبتها .

وعن الشق الأول من الحملة فلم يقدر المؤرخ وليم أف نيوبره عدد الجيش الألماني بينما قدره المؤرخ روجر أف واندوفر بحوالي سبعين ألف فارس، فضلاً عن المشاة(75)، وعن تحركاته فيذكر مؤرخنا النيوبَرِيّ: " عندما دخل الجيش هنغاريا المجر وبعد العمل على استرضاء ملك هذه الدولة جيزاالثاني(76) Gyza II م. (1142- 1161م) ليقدم لهم ما يلزمهم من مؤن إضافية، عبروا نهر الدانوبDanube وتقدموا مخترقين إقليم تراقية Thrace - بعد أن اتخذوا الاستعدادات الضرورية لمواصلة المسيرة- حتى بلغوا في أمان تخوم القسطنطينية، وهناك أقاموا خيامهم دون المدينة، حيث استراحوا لعدة أيام عقدوا خلالها اتفاقية من بنودٍ عديدة مع إمبراطور هذه المدينة الإمبراطور البيزنطي مانويل الأول Manue II (1143- 1180م)، ثم عبروا اللسان البحري الضيق الذي يدعى مضيق القديس جورج"6 St. George، وهو المعروف حالياً باسم مضيق الدردنيل، وفي موضعٍ آخر يوضح المؤرخ وليم: "أن البلاد المجرية التي تم المرور بها تعرضت لاعتداءات من أكثرية الجيش؛ حيث أبْدَوْا ألواناً من الغطرسة والشهوانية والفجور حيالهم، في حين امتثل الأقلية لما تم عقده من اتفاق(77)". وإذا ما كان المؤرخ الإنجليزي قد أقر بأن هناك اتفاقين قد أبرما بين كنراد وملك المجر عند المرور بأرضه لاسترضائه وبينه وبين الإمبراطور البيزنطي بعد وصول الألمان عند أسوار القسطنطينية، فإن المؤرخ البيزنطي كيناموس يشير إلى أن ذلك قد تم أثناء مقابلة سفارة بيزنطية للملك الألماني عند عبوره بلاد المجر، وفيه بذل يمينا للسفراء

بعدم إنزال أضرار بأراضي بيزنطة خلال اجتيازه لها مقابل الحصول على ما يلزمه من مساعدات(78), ولذا فربما يكون هناك اتفاق مسبق ومنفصل عقد مع المحريين يختلف عن تلك المعاهدة التي أبرمت بين العاهلين الألماني والبيزنطي تعلقت بالأراضي البيزنطية ذاتها .

وفي المرحلة التالية كان يفترض أن يتناول المؤرخ مسيرة الجيش الفرنسي الذي لم يقدر عدده أيضاً، بينما قدره المؤرخ روجر أف واندوفر بأنه يمثل عدد الجيش الألماني (أي سبعين ألف فارس عدا المشاة) إلا أنه كان يفوقه تدريباً وتسليحاً(79). بيد أن مؤرخنا أخذ يتحدث عن الجيشين معاً مستخدماً لفظة " المسيحيين "؛ حيث قال عنهم: " وعند وصولهم إلى آسيا الصغرى التي كانت مقسمة بين إمبراطور القسطنطينية مانويل الأول وسلطان قونيه Iconiumوكان آنذاك هو السلطان مسعود الأول ابن قلج أرسلان (1116 – 1156م.), واجهوا الغدر من الإمبراطور اليوناني؛ لأن قومنا كانوا قد أثاروا حنقه بتجاوزاتٍ معينة ارتكبوها، بل ألبوا عليهم الله بغضبه جراء ما اقترفته أيديهم في صلفٍ وغرور ورغبة في الاستعباد"، ثم ساق المؤرخ شواهد من العهد القديم على أن الله لا ينصر قوماً بينهم عاص(80)، ورأى المؤرخ أن هذا قد انطبق على حالة الجيش المسيحي في ميدان المعركة بآسيا الصغرى، وفي ذلك يستكمل حديثه قائلاً: " لقد ترتب على جرائمهم تلك ما ترك أثره السيئ ليس فقط على حياتهم اليومية بصفتهم مسيحيين، إنما كذلك بوصفهم محاربين، ولذا لم يكن مستغرباً ألا تبتسم العناية الإلهية لهم؛ فقد كانوا بحق فاسدين ملوثين"، وتهكم المؤرخ عليهم قائلاً:" إن معسكراتهم التي يطلق عليها باللغة اللاتينية لفظة كاسترا Castra ما هي – في الحقيقة– إلا كاستراتCastrate ، أي التي تم خصيها بتجريدها مما شابها من أقذار ودنس، فلقد كانت معسكراتنا تعج بعدم العفة بسبب شهوانية الكثير منهم البينة وفسقهم الفاضح، في الوقت الذي تباهوا فيه واغتروا بكثرتهم وحسن تجهيزاتهم، وكانت ثقتهم في رحمة الله وقدرته قليلة جداً برغم تظاهرهم بالحماسة في الحرب من أجل قضيته، واثبتوا حقيقة العبارة الإنجيلية: (ولكنه يعطى نعمة أعظم، لذلك يقول يقاوم الله المستكبرين، وأما المتواضعون فيعطيهم نعمة) رسالة يعقوب 6:4، فضلاً عن ذلك كله فبالرغم أنهم كانوا

في تلك الآونة يقيمون في أراضي خاضعة لحاكم مسيحي، كانوا قد عقدوا معه تحالفا، وبالرغم من أنهم حصلوا على الإمدادات من قيادات جيشه بأوامر منه، إلا أن ذلك كله لم يثنيهم عن نهب بلاده(81)."

هذا السخط الواضح في العبارات التي استخدمها صاحب المدونة عمّا اقترفته القوات الألمانية والفرنسية، خاصة أشكال السلب والنهب ضد إخوانهم في الدين، لم ينفرد به هذا المؤرخ؛ إذ نجد على سبيل المثال من نظائره المؤرخين المسيحيين الغربيين أودو أف ديل Odo of Deuilالذي سبقه في ذلك، ووصف تصرفاتهم بعمل بربري أقدمت عليه قوات ألمانية مخمورة، أما القوات الفرنسية فلم تكن أقل فجورا وعنفا حينما سطوا على أموال الصرافين وممتلكات المواطنين البيزنطيين(82).

ثم سرد المؤرخ وليم وقائع المصير التعس الذي واجه الجيش المسيحي جراء ما أقدم عليه من نهب وسلب في بلاد الإمبراطورية البيزنطية قائلاً: " ونتيجةً لذلك أغار عليهم الإمبراطور مانويل الغاضب، فمن ناحية ضرب عليهم الحصار حتى استشرت المجاعة فيما بينهم، ومن ناحية أخرى أعمل فيهم السيف تقتيلا، فعلى الرغم من أنه مسيحي إلا أنه لم يتردد في سفك دماء مسيحية. وأخيراً ونتيجة لتوقف جميع الإمدادات حالت كمائن العدو أيضاً دون التماس الجيش سبيله للحصول على المؤن مما عرض أفراده للإبادة إما بسبب الجوع، وإما بسقوطهم صيداً سائغاً في شِراك العدو، حتى لونوا سيوف الأتراك بدمائهم، ومن نجا منهم فقد آثر أن يبدل بذل دمه المسيحي بأسوأ وأحقر عبودية بأخذه أسيراً, ومن ثم تعرضوا بسبب غطرستهم ودنسهم لغضب الله الجارف أكثر مما تعرضوا إليه بفعل سيوف أعدائهم التي أخذت تحصدهم. وما لبث أن وصل الجزء الأعظم من الجيشين الكبيرين لعله يقصد غالبية الشق الفرنسي مع البقية الباقية من الجيش الألماني الذي وقع ضحية المشاكل والمعارك إلى بيت المقدس بعد أن نجا الأميران الكبيران بالكاد من الفناء، وهناك لم يستطعا إنجاز أي عمل بطولي يذكر، فعادا إلى بلادهما بلا مجدٍ يخلد ذكراهما(83)."

بذلك وفي حسرة بالغة أجمل المؤرخ وليم أسباب هزيمة الحملة الصليبية الثانية في آسيا

الصغرى، فأكد على أن مسيحيي هذه الحملة ذاقوا كسابقيهم مرارة غدر الإمبراطور اليوناني، تلك الخيانة التي تردد عنها الحديث عند عدد من المؤرخين المعاصرين، ويهمنا في هذا الموضع ما ورد عند وليم الصوري عنها، حيث روى أن المرشدين البيزنطيين هم الذين اختاروا طريق الحملة بحيث غدت تحت سيطرة الأتراك، وحينما كان يسألهم كنراد عن أمور مهمة لتحركات الجيش كانوا يضللونه حتى أنهم هربوا ليلاً، وبدون المرشدين وجد كنراد جيشه في ضياع، كما شحت الإمدادات فأكلوا الدواب، وما لبث أن انقض عليهم السلاجقة من كل جانب(84). بيد أن مؤرخنا كان صارماً حين ألقى اللوم بشدة على اللاتين واتهمهم بصفات الدنس والطيش وأنهم استحقوا عقاب الله نتيجة مبادرتهم بالاعتداء على الممتلكات البيزنطية فحق عليهم أيضاً أن يُقَابَلُوا بجم غضب الإمبراطور، أما الملكان الألماني والفرنسي اللذان أشار إليهما المؤرخ مؤخراً بالأميرين الكبيرين فلربما أراد التهكم عليهما أو الحط من قدرهما، خاصةً وأن ذلك الوصف جاء أثناء الإشارة إلى فرارهما مع فلول جيشهما المدمر الذي أرجع المؤرخ نجدتهم من المذبحة لما أظهروه سلفاً من نخوة ونبل وتواضع عند اجتيازهم لبلاد المجر، فاستحقت تلك الفلول بذلك أن يظلهم الله برحمته(85). وفي الواقع فإن هذا النمط من الكتابة التاريخية لا تخلو من الصبغة الدينية وهى تعد أمراً شائعاً في هذا العصر ولا تبخس للمؤرخ ما قدمه من عمل، ومن ثم يتأكد لنا أن مؤرخنا وليم أف نيوبره نجح في أن يضع نفسه واحداً من مؤرخي أحداث الحملة الصليبية الثانية ولو لبعضٍ من جوانبها .

هذه النهاية التعسة بالنسبة للصليبيين تركت آثارها على المؤرخين المعاصرين الآخرين أيضاً. فاهتم جانب منهم بتسجيل بقية أحداثها المأساوية– والتي أغفلها وليم أف نيوبره– إذ تجدر الإشارة إلى أن وليم الصوري قد أولى المرحلة الأخيرة اهتماماً بداية من وصول الحملة إلى مملكة بيت المقدس، وانطلاقها نحو دمشق كي تكون هدفاً لها، وتفاصيل القتال والحصار من حولها، ثم إقفالها وعودتها مهزومة حتى رحيل لويس السابع في العام التالي 1149م. (86). كذلك فمن المهم تتبع موقف المؤرخ روجر أف هوفدن من تسجيل وقائع الحملة؛ نظرا لأن الظروف التي تحيط به لا تختلف كثيرا عمّا أحاطت بمؤرخنا وليم أف نيوبره، فقد

وردت أحداث الحملة عند روجر في أسطرٍ معدودة، ولم يأت بأية تفاصيل كتلك التي عند وليم في كل مراحل الحملة، اللهم تلك الإشارة المتعلقة بفشلها أمام أسوار دمشق(87)، مما يبرز مؤرخنا ومدونته بصفة عامة متميزة في تناول أحداث تلك الحملة خاصة في مراحلها الأولى .

وفي الواقع لم يفت المؤرخ وليم أف نيوبره- في موضع آخر وهو الفصل الحادي والعشرون الكتاب الأول(88)- أن يذكر جانباً من الأحداث التي تلت هزيمة الحملة الصليبية الثانية وعودتها، وكانت قد نجمت عمّا وقع من خلافات بين الأمراء الصليبيين وداخل المعسكر المسيحي أثناء تواجدهم في الشرق، وفي حالة نادرة التكرار أفصح المؤرخ عن المصدر الذي نقل عنه، فكان أحد القساوسة العائدين من إنطاكية وقت أن كان المؤرخ في ريعان شبابه، والذي أقر بأنه نقل عنه الكثير مما كان في جعبته من أخبار عن الشرق اللاتيني، مؤكداً أن القس تحرى الدقة فيما روى؛ إذ كان شاهداً للعيان لما رآه من وقائع، وذلك من خلال موقعه في خدمة أمير إنطاكية ريموند أف بواتيه Raymond of Poiers(1136-1149م) ومما أورده المؤرخ:" ترتب على نجاح المسلمين في إرغام المسيحيين على التقهقر من أمام أسوار دمشق إلى ثكناتهم بصورةٍ مخزية، وكذلك بعدما غنموا المغانم الكثيرة، وأوقعوا عددا كبيرا من المسيحيين بين قتيل وجريح، أن بزغ نجمهم وحق لهم أن يتباهوا بما أحرزوه من نصر، لذا فقد كانوا واثقين للغاية من قوتهم حتى أصبح في مقدورهم لسنواتٍ طوال اقتحام الإمارات المسيحية ضمن خطة للقضاء عليها في الشرق قضاءً مبرماً، وللوقوف على كيفية ذلك نتناول بدايةً حادثة مقتل ريموند أف بواتيه الذي يعد أكثر أمراء إنطاكية إخلاصاً للمسيحية، وكان ذلك بمثابة الفأل العظيم بالنسبة للمسلمين، فلقد كان هذا الأمير بحق أشجع من دافع عن القضية الصليبية في الشرق، حيث تمكن من أن يكتسب لنفسه شهرة الأوائل من الميكابيين Maccabaeus بما أحرزه من أعمالٍ مجيدة..... فقد كان إقدامه وشجاعته في القتال سبباً في إلقاء الرعب بين المسلمين، فمتى كانوا يدفعون إليه بجيشٍ كانوا مضطرين إلى وضع مئة فارس ضد سيفه ومثل هذا العدد

ضد رمحه، ومن آيات ذلك أنه حينما تشجع المسلمون بانتصاراتهم وغدت إنطاكية تئن من وطأة تكرار هجومهم على أراضيها كان هو يخرج لمهاجماتهم برهطٍ من الرجال دونما الانتظار لجمع قوةٍ كافية، وبعد عدة بطولاتٍ مجيدة سقط صريعاً في ساحة القتال لتفوق أعداد أعدائه ضده شأنه شأن أبطال الميكابيين في العهود المنصرمة، وحينئذ أخذ المسلمون يدبرون الأمر من أجل اقتحام مدينة إنطاكية(89).

هكذا اقتصر حديث مؤرخنا عن ريموند أف بواتيه على تقييمه فارساً وحاكماً دون التعرض للتفاصيل الخاصة بخصائصه الجسمانية وظروف توليه الإمارة، مما أبرز قيمة المؤرخ وليم الصوري في مجال اهتمامه بتسجيل هذه التفاصيل، حيث بَيَّن أن ريموند هو الابن الأصغر لوليم التاسع دوق أكويتين والمقيم في بلاط هنري الأول ملك إنجلترا، وقد حضر سرا إلى إنطاكية، وتهيأت أمامه الظروف كي يكون حاكما لها في أبريل 1136 م.(90). ويبدو أن إقامة الأمير ريموند أف بواتيه في بلاط الملك الإنجليزي هنري الأول قد تركت أثرا ما عند مؤرخنا وليم أف نيوبره بصفته مهتما بالتاريخ الإنجليزي، فأولاه بعض الاهتمام، وقد أقرت المصادر الإسلامية والصليبية الأخرى بما أورده المؤرخ الإنجليزي من مادة، بيد أنها أوضحت تاريخ الانتصار على ريموند وقتله في 29 من يونيو 1149 م. عند آنب شرقي نهر العاصي(91).

ومرة أخرى– وفي موضع تال– ذكر المؤرخ جانباً آخر من نتائج الحملة الصليبية الثانية غير المباشرة، وكانت قد نجمت أيضاً عن الخلافات بين الصليبيين في الشام، حيث جاء في روايته:" عندما عاد الملك لويس السابع إلى وطنه مع زوجته إليانور موصوماً (92) بعار الفشل في حملته أخذت عواطفهما السابقة في التبدد تدريجياً، ونشبت بينهما أسباب الخلاف، حيث أهان الملك بسلوكه الملكة إهانة شديدة، بينما أكدت هي أنها تزوجت راهباً لا ملكا. ومما قيل أيضا أنها أثناء ارتباطها بملك فرنسا كانت تطمع في الزواج من هنري دوق نورمندي؛ لأنه كان أكثر مراعاة لمشاعرها، ونتيجة لذلك ألفيناها راغبة في الطلاق، فطالبت به مما أدى إلى تفاقم النزاع، واشتدت إصرارا على طلبها حسبما قيل، ولم يبد الملك معارضة

لذلك، وأقدم على فسخ رابطة الزواج فيما بينهما بحكم القواعد الكنسية استنادا إلى شهادة رجال الدين بوجود قرابة بينهما، وذلك في عام 1151 م.، وترتب على ذلك أن انسلخت مقاطعة أكويتين عن فرنسا(93)"، فضلا عن إقطاعية بواتوه(94). ورغم وضوح الرؤية عند مؤرخنا بشأن هذه الأحداث إلا أن هناك مزيدا من الإيضاحات نجدها عند غيره، إذ ذكر وليم الصوري ما أغفله وليم أف نيوبره عن علاقة القرابة بين الملكة وخالها ريموند أمير إنطاكية، إذ كانت الابنة الكبرى من أخته زوجة وليم العاشر، كذلك أوضح رغبة الملكة في تكريس الحملة لتوسيع حدود إمارة إنطاكية على حساب جيرانها المسلمين، ذلك الأمر الذي حمل هذا المؤرخ على إبداء سخطه عليها باتهامها بالرعونة والطيش، كما أشار إلى وجود ما يشين سلوكها سواء أثناء إقامتها في إنطاكية مع خالها أم حتى بعد العودة إلى فرنسا؛ حيث نهجت نهجا لا يليق أبدا بمكانتها الملكية؛ فلم تراع التزاماتها الزوجية ولم تخلص لزوجها(95). وهكذا أكملت روايته ما كان قد ذكره مؤرخنا وأكدت على المصداقية والقيمة التي أتت في مدونته التاريخية .

وبعد عرض المادة التاريخية عن الحملة الصليبية الثانية في هذه الفصول من المدونة يتبين أن صاحبها نجح في أن يضع يديه على السبب الحقيقي لخروج الحملة الصليبية الثانية، ألا وهو سقوط الرها في يد المسلمين، ومهد لذلك بتقديم رواية تاريخية عن اعتناق الإقليم للمسيحية والتمسك بها حتى بعد الفتح الإسلامي، وتحوله إلى إمارة حكمها اللاتين، ولكن عرض الأحداث كان يشوبه بعض الاضطراب الذي يلتمس فيه العذر للمؤرخ؛ نظرا لابتعاده- مكانا وزمانا- عن الوقائع التاريخية في هذه المرحلة. وتدخل الباحث بدوره بتوظيف المادة- كل في مكانها- بدون المساس بها إلا في حدود توزيعها. أما حينما تعرض لخروج الحملة وتحركاتها وصولا إلى فشلها فقد نحت المدونة جانبا معظم التفاصيل الخاصة بالدعوة للحملة وأسماء قادتها المدنيين والعلمانيين وتفاصيل دور كل من: الملكين كونراد ولويس والإمبراطور مانويل فيها، كما وقع المؤرخ في لبس بسبب عدم الفصل في الأحداث بين ما واجه الجيشين الألماني والفرنسي في آسيا الصغرى؛ فجاءت أحكامه عامة مطلقة في

هذه الجزئية، في حين وقع أسيرا للأفكار التي سادت الغرب الأوروبي آنذاك حول خيانة بيزنطة للقضية الصليبية, وبدا متميزا في تحميل الجيش الصليبي المسئولية كاملة في الهزيمة وأرجع ذلك لسوء سلوكهم، وأخيرا يبدو أن فشل الحملة أمام دمشق كان كفيلا بجعل المؤرخ يصمت عن الكتابة عنها إبان وصولها إلى الأراضي المقدسة، ويكتفي بالإشارة فقط إلى فشلها. من ناحية أخرى نجحت المدونة في تسليط الضوء على بعض النتائج- غير المباشرة- لهزيمة الحملة، مثل تردي الوضع العسكري في إمارة إنطاكية جراء مقتل أميرها ريموند، وتزايد ضغوط المسلمين العسكرية عليها، وفي هذا الصدد أيضا كان تقييمه للأمور لا يختلف عن تقييم المؤرخ وليم الصوري- مؤرخ الشرق اللاتيني العتيد- فيما يخص الحكام، ومن ذلك أن كليهما اتفقا على ما يعيب سلوكيات الملكة إليانور، وهذا نلمسه عند مؤرخنا فيما ذكره عن قصصها الغرامية في أوروبا، بينما غطى الآخر تصرفاتها المعيبة في إنطاكية, وهى أمور أوغرت صدر الملك لويس؛ ومن ثم ألقت بظلالها على الحملة، مما أدى إلى فشلها بالهزيمة .

ويواصل المؤرخ الإنجليزي تأريخه للأحداث حول إنطاكية، ومما يفهم منه أنه بمجرد وصول أخبار مقتل الأمير ريموند وما وقع من هزيمة في الجيش الصليبي إلى القدس، أسرع الملك بلدوين الثالث Baldwin III (1143- 1162م) لنجدة المسيحيين هناك، وكان في رفقة جيشه فرسان طائفة الداوية العسكرية ,Templars1 وبالفعل وصل جيش الملك الصليبي في الوقت المناسب؛ نظرا لأنه لم يكن بالمدينة القائد الذي يمكنه الدفاع عنها, كما أن جيش المسلمين- الذي كان آنذاك تحت قيادة نور الدين محمود- كان قد وصل خارج المدينة وضرب حولها الحصار، وحينئذ أعلن جميع من بداخل إنطاكية خضوعهم الكامل للملك، وتهيأت الفرصة أمام بلدوين وقواته لاتخاذ التدابير اللازمة من أجل إنقاذ المدينة، ولم يمض وقت كبير حتى تنفس المدافعون الصعداء بأن أجبروا المسلمين على رفع الحصار، ولم يقتصر الأمر على ردهم؛ إذ تمكنت القوات الصليبية من تعقبهم حتى خارج الحدود، وما لبث أن نجح الملك في لم شعث الإمارة وقواتها، بينما وصلت إليه يوم بعد يوم إمدادات حربية؛ مما مكنه من مهاجمة أراضي نور الدين في أعمال حلب، فتبدل الوضع من

موقف الدفاع والذود عن إنطاكية إلى الهجوم على المسلمين في عقر دارهم(96). وهكذا أجمل مؤرخنا في اقتدار تسجيل أحداث إنطاكية وحلب في تلك المرحلة بشكل يغلب عليه الإيجاز رغم غزارة المعلومات التي وفرها له القس الإنطاكي، مما يجعلنا نخرج بحقيقة أن المؤرخ اتخذ من الإيجاز منهجا له في الكتابة .

وفي أواخر الفصل الخاص بإمارة إنطاكية وأميرها ريموند انتقل المؤرخ الإنجليزي إلى الحديث عن جانب آخر من القضية الصليبية في الشرق، وفيها تناول أحداثا تتعلق بمملكة بيت المقدس الصليبية؛ إذ يذكر أنه بعد أحداث إنطاكية المؤرخة بعام 1149 م..:" كانت بلدة غزة الزاهرة– وهى إحدى بلدات فلسطين القديمة– من ممتلكات طائفة فرسان الداوية، وخلال بضع سنوات قاموا بترميم البلدة وتعميرها، ومن ناحية أخرى قام الملك بلدوين الثالث بمهاجمة مدينة عسقلان Ascalon والاستيلاء عليها منجزا بذلك عملا مجيدا، إذ كانت أكثر مدن هذا البلد ازدهارا وأقواها حصانة، الأمر الذي حال دون وقوعها في أيدي الصليبيين قبل ذلك، ومن ثم فقد تم إخضاع مجمل الأراضي الفلسطينية إليهم في ظل حكم هذا الملك(97)". وكالعادة نجد عند المؤرخين المسلمين المعاصرين– فضلا عن المؤرخ وليم الصوري– مزيدا من التفاصيل عن الأنشطة الحربية المصاحبة لعملية الحصار ثم إسقاط المدينة في يوم السبت الموافق الثاني والعشرين من أغسطس 1153 م (98).

وبعد إحجام المؤرخ وليم أف نيوبره عن ذكر أحداث حوالي عشرة أعوام تتعلق بالحروب الصليبية في الشرق بشكل مباشر نجده يظهر اهتماما بأحداث الصراع بين نور الدين محمود والملك عموري الأول Amalric I (1162- 1174م) محول الاستيلاء على مصر، ففي الفصل الثالث والعشرين من الكتاب الثاني(99) تناول أحوالها التي آلت بها إلى التدهور الشديد بشكل أغرى جيرانها بالطمع فيها؛ إذ كانت مواردها البشرية والاقتصادية الكبيرة كفيلة بترجيح كفة الطرف الذي يستولى عليها أو يضمها 100)، والواضح أن هذا القطر كان له وزنه الإقليمي البارز عند المؤرخ، فأفاض بعض الشيء في الحديث عن تاريخه القديم، مما ينم عن ثقافة ليست بقليلة، فذكرها باسم بابليون ,Babelion وأدرك أنه رغم

أن هذا المسمى المعاصر هو ذاته مسمى بلاد بابل العتيقة الكلدانية- التي تأسست في العراق بعد الطوفان الذي قضى على مدينة نينوى Nineveh وكانت لها السيادة على الشرق لما يربو عن ألف عام- إلا أنها تختلف عنها، واعتقد في أن مؤسس بابليون المصرية هو الملك الفارسي قمبيز (552 – 525 ق.م.) عندما استولى على مصر، وهو الذي أطلق عليها هذا المسمى(101). وفي الواقع فإن هذه المعلومات التاريخية(102) تكشف عن أن مقدمها اكتسب ثقافته من خلال قراءات في الكتب الكلاسيكية واللاهوتية التي ضمتها مكتبات الأديرة في أوروبا عصر نهضة القرن الثاني عشر الميلادي .

استعرض المؤرخ وقائع السباق بين عموري الأول ونور الدين محمود من خلال حملتين حربيتين للملك الصليبي غافلا بعض ما يخص تلك الجولات، خاصة ما يتعلق ببواكيرها؛ إذ أورد وليم الصوري معلومات عن حملة سابقة للملك الصليبي وقعت أحداثها في مستهل سبتمبر 1163 م. وفيها أورد تفصيليا أن الملك جاوز التخوم الشرقية للبلاد، وتمكن ضرغام وزير مصر من صد قواته بأن قطع الطريق عليها بكسر السدود المائية مستغلاً طبيعة النيل الجغرافية والفيضان(103)، ورغم فشل الملك هذه المرة في الاستحواذ على مصر إلا أنه تمكن من الوقوف على أجزاء من مصر(104). ويعتقد أنه نظرا لأن هذه الحملة لم تأت بأية نتائج عملية فقد تجاهلها وليم أف نيوبره في كتاباته .

فلقد اكتفى المؤرخ بتناول الأحداث التي وقعت في العام التالي أوائل أغسطس 1164م.(105)، حيث قال:" قاد عموري ملك بيت المقدس حملة صليبية إلى مصر بدعوة من ملكها ولم يرد اسمه.....,, وكان سبب ذلك أن الإمبراطورية المصرية تأثرت بخطر الأتراك، وهم قوم حرب مهرة كانوا تحت حكم الملك نور الدين، إذ بدا المصريون شديدو الثراء في حين كانوا أقل شأنا في تجهيزاتهم الحربية.....، وتحت رعاية هذا الملك تولى شيركوه- أكبر أمرائه والذي كان خبيرا محنكا بأمور الحرب- قيادة جيش في سرية تامة، وعبر به أطراف الأراضي الصليبية حيث بادر بغزو الديار المصرية، وعندئذ رأى ملك مصر أنه مما يبعث على الخوف وفي غير صالحه أن تتهاوى أو تستسلم بعض المدن له، وبهذا الشكل

المتسرع التمس مساعدة الملك المسيحي بعد أن أدرك عدم قدرة المصريين على إسعافه، واعدًا إياه بتوثيق أواصر العلاقة به لاحقًا مع دفع جزية سنوية محددة، وعلى الفور قام الملك عموري في همة عالية بعمل الاستعدادات اللازمة في كامل مملكته واستبقى جزء من جيشه للتصدي لهجوم نور الدين في حالة قيامه بأي مغامرة حربية، في حين تولى قيادة الجزء المتبقي من جيشه الصليبي ودخل به مصر، وهناك تحالفت قواته مع ملك مصر في جيش واحد تمكن من محاصرة شيركوه مع قواته التركية في مدينة محددة لم يرد اسمها، وتمكنوا في النهاية من طردهم خارج البلاد مهزومين، وقد سمح لهم الملك الصليبي باجتياز الأراضي المسيحية في أمن وسلام في طريق العودة إلى وطنهم (106)قد أتت تفاصيل تلك الحملة عند المؤرخ وليم الصوري وفيها يتضح اسم ملك مصر فكان وزيرها شاور الذي كان قد نجح في قتل ضرغام وتولى الوزارة بدلا منه، وكذلك اسم البلدة التي حوصرت في مصر فكانت بلبيس، وقد اختلف وليم الصوري مع مؤرخنا حينما أشار إلى أن حملة عموري تألفت من جميع جيش المملكة بما فيهم الأمير همفري الثاني Humphrey II صاحب بانياس، والذي ترأس الفرسان بصفة أنه كان يشغل آنذاك وظيفة كندسطبل المملكة(107) (أي قائد جيوشها)، ومن ثم استغرقت المادة الواردة عند وليم الصوري الخطوط العريضة لرواية وليم أف نيوبره عن أحداث الحملة ومؤكدة عليها .

تنبه مؤرخنا إلى الشق الآخر من خطة نور الدين الحربية في تلك الآونة، حيث وصفه بالمكر والخداع، ذاكرا تواجد الملك عموري على رأس حملته في مصر إبان ذلك، فيقول في روايته: " وبينما كانت الأحداث الحربية تحتدم هناك، لم يهدأ لنور الدين بال، بيد أنه تظاهر بعدم اكتراثه بما يجري، ونجح أخيرا في استمالة رجل منا عن طريق الرشوة؛ نظرا لأنه كان حديث عهد بالدخول في المسيحية، وكان هذا الشخص يتولى رئاسة حامية قلعة البلدة التي تسمى حاليا بانياس – بلیناس Belinas الواقعة في الأراضي المواجهة لبلاد العدو، وقديما كانت البلدة تعرف باسم قيصرية فيليبيCaesarea Philippi ، وقام نور الدين ومعه المسلمون بدخول المدينة في سرية بمساعدة هذا الرجل، ولم يعملوا السيف في أهلها، واكتفوا

بطرد الصليبيين وأسقف البلدة المسيحي منها، كما قاموا بتحصين وإبدال حامية البلدة بحامية جديدة، وقد أدت هذه الواقعة إلى تعكير صفو انتصارات الملك الصليبي عند عودته من مصر"، وفي مكان آخر من المدونة عبر المؤرخ عن تميز موقع بانياس بقوله:" تعد هذه البلدة مفتاح الأراضي المسيحية في مواجهة دمشق(108). "، وقد شرح الرحالة المسلم ابن جبير الذي مر بتلك المناطق في عام 1183 م. وضع الأراضي عند بانياس بقوله: " أنه في تلك الجهات كان بين الإفرنج والمسلمين حد يعرف بحد المقاسمة؛ فهم يتشاطرون الغلة على استواء ومواشيهم مختلط."

فتبيانا لحقيقة الأحداث التي رواها وليم أف نيوبره عن بلیناس؛ نقف على ما ذكره وليم الصوري الذي أورد المزيد عنها، فتعرض لموقعها الجغرافي وحدده عند سفح جبل لبنان، وأن مملكة دمشق تتاخمها من الشرق قرب الموضع الذي ينبع منه نهر الأردن؛ ومن ثم فهي تشكل في نظره الحد الشمالي لأرض بنى إسرائيل، وتعرض للمسمى القديم وسبب تسميتها قيصرية فيليبي، وذكر أن اللاتين قد حرفوا المسمى من بانياس إلى بلیناس، ودعم المعلومات التي كان وليم أف نيوبره قد أوردها بشأن أحداث بانياس الحربية، في حين أضاف عليه تفاصيل توضح أن ذلك كان بمثابة نوع من المناورة الحربية من قبل نور الدين بأن أشاع النية في مهاجمة بانياس بغرض الضغط على ملك بيت المقدس لشل حركته ومنعه من التدخل في شئون مصر، في حين أتى في روايته بما يشير إلى أنها سقطت بسبب إهمال النائب عليها وربما نتيجة رشوة قسيس يدعى روجرRoger ، بيد أنه لم يذكر شيئا عن مصير أهلها الصليبيين(109)، الأمر الذي كان واضحا عند مؤرخنا الذي قدم في هذا الصدد أيضا إضافة انفرد بها، وهى أن القلعة سقطت نتيجة رشوة القائم على حمايتها من قِبَل الملك الصليبي؛ نظرا لأنه كان مسلما حتى وقت قريب، ولكن بالرجوع إلى المصادر الإسلامية يتضح أن مؤرخنا وقع في لبس؛ نظرا لأنه منذ ما يزيد عن ثلاثة عقود برزت شخصية شيعية كانت قد استحوذت على القلعة بالفعل، ألا وهو إسماعيل العجمي، وخضعت له بانياس حتى تسلمها الصليبيون منه تحسبًا من حكام دمشق ونكاية فيهم(110)، بيد أن هذا

اللبس ينم عن أن صاحب المدونة كان يحاول تقصى أخبار الشرق، فوصلت إلى مسامعه بعضها مشوها أدخله في هذه الدائرة.

وفي واقع الأمر لم يكن سقوط بانياس في الثامن عشر من أكتوبر 1164 م. وحده الذي دعا عموري للخروج من مصر، إنما أدى تفاقم الوضع قبل ذلك بما يزيد عن الشهرين في إمارة إنطاكية إلى محاولة نجدتها بعد قيام نور الدين محمود بمعاونة قوات الموصل والأراتقة لمهاجمة قلعة حارم الواقعة في الشمال بشكل مباغت، وأنزل هزيمة كبرى بين الصليبيين خلال الأيام الأولى التي وصل فيها جيش عموري إلى مصر(111)، ولما كان سقوط بانياس قد حدث في تاريخ أقرب لانسحاب عموري من مصر في نوفمبر 1164 م (112)، فقد اعتبره مؤرخنا أنه السبب المباشر في الانسحاب دون الالتفات لهزيمة الصليبيين عند حارم وسقوطها، كذلك جاء وصفه للملك عموري بالمنتصر في هذه الجولة، وهو أمر لا يتفق مع الواقع، اللهم إذا وضع في حسبانه أن وزير مصر كان قد عرض جانبا من ثروة مصر على الملك الصليبي مقابل حمايته من نور الدين, ومن ثم فلا فضل للملك الصليبي في ذلك، وإنما تخاذل شاور وخداعه لشيركوه يفسران النصر الجزئي الذي أحرزه الصليبيون في تلك الجولة .

ثم ينتقل المؤرخ إلى الحديث عمّا اعتبره الجولة الثانية من الحملات التي قادها الملك عموري على مصر والتي وقعت أحداثها في بواكير عام 1167 م.، ذاكراً أنه استقى مادته التاريخية من بعض المحاربين الصليبيين الذين اشتركوا في أحداثها، موضحا أنه:" بعد بضع سنوات غدا الأتراك نور الدين ومجاهديه أكثر شجاعة وحماسة وقوة، ولم تحثهم في تلك المرة شهوة السيطرة على مصر بقدر ما حفزتهم رغبتهم في الانتقام مما حاق بهم من فشل سابق في الحملة الأولى، ذلك أنهم وصلوا أعماق مصر تحت قيادة شيركوه، وفي تلك المحاولة افتقد الملك المصري الخليفة الفاطمي أو وزيره ثقته بنفسه تماما، ونتيجة لذلك راح يرسل السفراء على الفور يلتمسون المساعدة من الملك الصليبي وفقا لما هو مبرم من معاهدات معه, فأخذ عموري يضع تدابير أكثر حذرًا، وتمكن من دخول مصر بقوات ضخمة من المشاة والفرسان، وهناك انضموا إلى الجيش المصري الفاطمي شيعي المذهب عاقدين العزم على

مهاجمة الأتراك السُّنة, فانسحبوا إلى الصحراء بمهارة ليكون قرار الهجوم بأيديهم لا بيد شيركوه(113). "، وفي الواقع تأتى المادة الواردة في كتاب الأعمال فيما وراء البحار لوليم الصوري لتبين هذه الأحداث، إذ أتت بتفاصيل اجتماع القادة الصليبيين في المملكة في مدينة نابلس، كما أبرز الكتاب جهود الملك في حشد وتنظيم جيشه، وخططه لجمع المال والعشور وتعرض لخط سير الجيشين الإسلامي والصليبي، حيث وصل الأول إلى أطفيح عند الجيزة، ثم عبر النيل حيث عسكر في مواجهة الفسطاط على الضفة الغربية للنيل، أما الجيش الصليبي فقد وصل إلى بلبيس، ومنها اتجهوا صوب القاهرة وعسكروا عند الضفة الشرقية للنيل(114).

ثم يستأنف مؤرخنا الإنجليزي روايته، فتحدث عن وقوع مناوشات بين المعسكرين الإسلامي والصليبي لم يفصح عن تفاصيلها، ولكنه أوضح أنه في يوم عيد الفصح الموافق 19 من أبريل 1167 م.: " وبينما كان الصليبيون يحتفلون بهذه المناسبة- إبان إقامتهم داخل معسكراتهم المقامة في الضفة الشرقية للنيل- فإن هذه المناسبة المباركة لم تمر إلا وقد ظللها الله ببركاته؛ حيث توافرت للجيش مؤن وأطعمة لم تكن في حسبانهم، وذلك من خلال صيد أعداد ضخمة من الخنازير البرية كانت قد ظهرت أمامهم فجأة(115) "، بيد أن المؤرخ وليم الصوري القريب من الأحداث لم يشر إلى هذه الرواية في سرده التفصيلي، وفيه سجل عقد اتفاقية صلح دائمة بين شاور وعموري تقوم على التحالف الحربي فيما بينهما، الأمر الذي منح الصليبيين فرصة مبادأة جيش شيركوه بالقتال ومناوشته بعد اجتيازه النيل ليلا(116), وبذلك تجتمع الشواهد على أن ما كان من صيد ثمين رزق به المعسكر الصليبي قد يكون رمزا لمدد ومؤن أتت إليهم من حليفهم شاور، وإن صح ذلك فهذا يقوى الانطباع بأن المؤرخ لديه حس أدبي مميز جعله يستخدم الكناية فيما يعبر، وربما كان لديه من واسع الخيال حتى وضع هذه الواقعة في قالب أسطوري .

ويواصل المؤرخ وليم أف نيوبره روايته للأحداث الحربية في هذه المرحلة من الحملة على مصر، وفيها يذكر:" في صباح اليوم تقدم الصليبيون لمواصلة مطاردة أعدائهم، وعندما خارت

قوى فرق المشاة المشتبكة أمرهم الملك عموري بالتوقف عن القتال، وتقدم ومعه الفرسان سريعا أمامهم، وفي المقابل حينما اكتشف هذا الأمر القائد شيركوه المحنك, عقد العزم على الدخول في المعركة بعد أن تأكد من أن النصر سيكون حليفه نظرا لتجرد الجيش الصليبي من عنصر المشاة، اعتمادا منه على تفوق سلاح الفرسان في جيشه، وتبع ذلك اشتباك دموي وشرس للغاية، استمر منذ الساعة السابعة نهارا حتى آخر ضوء، وانتهى الأمر بأن لجأ كل من الجيشين إلى معسكريهما بعد أن أصابهما الخوف بسبب تناقص أعدادهما ومعنوياتهما بقدر واحد على حد سواء، ولم يفصل بينهما إلا نهر النيل عند مخاضة كان الصليبيون قد حرصوا بقوة على تأمينها والسيطرة عليها من أجل الأخذ بناصية أعدائهم، وفي جنح الظلام جمع الملك الصليبي قادته ليتفقد الجيش، فراعه كثرة خسائره نظرا لوجود أعداد كبيرة من الجرحى بين صفوف الجيش، وأرجع وقوع تلك الكارثة إلى غياب الجزء الأعظم من قواته في الخلف، وحينئذ أبلغ القادة بأنه من المستحيل الاستمرار في المعركة مع الصباح، ولذا فما من بد من العودة في سكون الليل إلى بقية الجيش، ولقي ذلك القرار استحسانًا من الجميع فانسحبوا في هدوء من الطريق ذاته الذي جاءوا منه، وأقدم الأتراك على اتخاذ الخطوة ذاتها فتقهقروا في احتراز أيضا(117). "، هذا وقد شرح وليم الصوري جهود الملك في إقامة جسر عند المخاضة، وأطال في الحديث عن المعارك السجال البرية منها والنهرية, وتميز بتحديد تاريخ المعارك ومكانها بل وأعداد المشاركين فيها وانتقال المعارك إلى المنيا في صعيد مصر وما آلت إليه(118) .

وبالنظر بعين مقارنة على النصوص المصدرية المتاحة في هذا الجانب من الجولة يتضح إلى أي حد كان وليم أف نيوبره موضوعيا في روايته، حيث بدت منصفة لشيركوه وجيشه، وهذا ما يستشف من رواية نظيره وليم الصوري دون إفصاح صريح منه، كما كانت إشارة مؤرخنا إلى أن الملك الصليبي قد انتابته الصدمة لعظم خسائره، ما يتضمن التأكيد على حيدته. والذي حدانا إلى الإحساس بموضوعية مؤرخنا ما أورده المؤرخ ابن الأثير عن المعارك عندما أبدى دهشته من أن: " ألفي فارس يهزم معسكر مصر وفرنج الساحل(119)"،

ونخلص من ذلك إلى أن هزيمة الصليبيين غير كاملة، كما أن انتصار المسلمين لم يكن حاسمًا .

وتتمثل الخطوة التالية في هذه الجولة عند مؤرخنا في انتقال المعارك إلى مدينة الإسكندرية فيذكر:" توجه الأتراك إلى الإسكندرية، في حين اجتمع مشاة الجيش الصليبي إلى فرسانهم وتقدم الملك الصليبي لمحاصرة الإسكندرية، بعد ما تمكن من دعم جيشه بصعوبة بأعداد إضافية من القوات كان قد حصل عليها بالاستسلام، ونجح في طرد الأتراك مرة أخرى من مملكة مصر، وعاد إلى وطنه بمجد عظيم(120)"، وبذلك أنهى المؤرخ في إيجاز ما اعتبره الحملة الثانية للملك عموري على مصر، بينما يقدم المؤرخ وليم الصوري تفاصيل للأحداث يفهم منها أن القوات التي زود بها عموري جيشه ما هي إلا قوات شاور التي تحالفت مع الصليبيين، كما أوضح أن شيركوه استولى على المدينة وحاصره عموري بداخلها؛ إذ أكد على أن أهالي المدينة هم الذين سلموها لشيركوه, وأضاف أن الحصار كان قد أحكم عن طريق الأسطول في البحر، فضلاً عن القوات المتحالفة برًا, كما أوضح أن الذي قاد عملية الدفاع داخلها كان صلاح الدين الأيوبي بعد أن تركه فيها شيركوه متوجها إلى القاهرة وما والاها من بلاد الصعيد، ومع اشتداد الحصار طلب صلاح الدين النجدة من عمه، وما لبث الطرفان بعد عناء القتال أن دخلا في مفاوضات الصلح، وعقدت اتفاقية بينهما انسحب بموجبها شيركوه وعموري بجيشيهما في الحادي والعشرين من أغسطس 1167 م.، أما شاور فقد تسلم الإسكندرية واستقر له الأمر في مصر في ظل الحماية الصليبية(121).

على ذلك نلحظ مدى اهتمام مؤرخنا بإبراز الملك عموري بطلا صليبيا، كذلك نلحظ موضوعيته في تناول أحداث مصر، ولكن في ذات الوقت لم يتعرض البتة لما انتهى إليه السباق بين عموري وشيركوه، وهو الذي حسم كما هو معروف بخضوع مصر للدولة النورية، وبدأ عهد جديد انتهى بأن تولت مصر فيه دور الريادة في الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، ذلك الأمر الذي سيحظى باهتمام المؤرخ ويتضح في الصفحات القادمة .

هكذا شمل المؤرخ الأسباب والأحداث فالنتائج المتعلقة بحملات الملك عموري على

مصر ودمج أحداثها في حملتين فقط, وبداية وضع يديه على الهدف من سياسة الملك الصليبي حيث أشار إلى طمعه في ثروة مصر نظرا لضعف استعداداتها الحربية، وفي المقابل ادعى أن ذلك كان هدف نور الدين محمود أيضا، بيد أنه أغفل الحملة الباكرة للملك الصليبي ضد مصر، فتحدث عن حملته الثانية على أنها أول ما قدمه من نشاط حربي صليبي ضد الفاطميين في مصر, فتناولت الأولى بالنسبة لروايته الخطوط العريضة لحملة 1164 م. وما ترتب عليها من نتائج، أما في الجولة الثانية فلم تكن بعض جوانبها واضحة المعالم عند المؤرخ؛ إذ وقع في بعض اللبس في عرض التفاصيل، ومن ذلك أنه أسند إلى الجيش الصليبي إمساكه بزمام تحديد موعد المعارك فيها بدخوله الصحراء، بينما كان شيركوه هو الذي خطط لذلك بجعل النيل يحول بين جيشه والصليبيين وقوات شاور، وأغفل المؤرخ بعض تفاصيل المعارك المهمة مبديا بعض الموضوعية من خلال إبراز فجيعة الصليبيين في خسائرهم أثناء القتال، ولم يلق الأضواء الكافية على أحداث حصار الإسكندرية، كما لم يصل إلى الحقيقة التي انتهت إليها حملات عموري وهي ظفر نور الدين محمود بمصر في نهاية المطاف، هذا في حين تعددت المصادر الإسلامية التي أبرزت تلك الأحداث فضلاً عن روايات وليم الصوري التفصيلية.

وفي المرحلة التالية من مدونة وليم أف نيوبره- وتحديدا في الفصل العاشر من كتابه الثالث(122) يحرص المؤرخ على رصد الوضع الداخلي على الساحتين الصليبية والإسلامية، حيث قال:" أنه من الضروري تقديم نبذة عن أحوال مملكة بيت المقدس منذ عهد الملك عموري الأول، فقد توفي هذا الملك بعد عدة حملات عسكرية مظفرة قام بها، تاركا الحكم لابنه القاصر بلدوين الرابع Baldwin IV (1174- 1185م) الذي كان شابا واعدا للغاية؛ حيث قضى فترة حكم فيها المملكة بما لديه من قدرة عقلية فائقة دون القدرة البدنية؛ إذ أصابه الله بداء البرص(123)"، وبينما صمت مؤرخنا عن تحديد تاريخ وفاة الملك عموري وهو الحادي عشر من يوليو 1174 م.، وذكر الظروف التي أحاطت باعتلاء ابنه العرش، فإن وليم الصوري يطالعنا بها في إسهاب وتدقيق يضعانا أمام

مؤرخ قدير شاهد للعيان يسجل الأحداث، ومما أورده أن تنصيب بلدوين الرابع ملكا تم وهو لم يتجاوز الثالثة عشر من عمره، وبموافقة من نبلاء المملكة، ولم يتم تعيين وصي على العرش، إنما تولى تسيير دفة الحكم بتعسف القائد العسكري ميلون أف بلانسي Milon of Plancyسيد إقطاعية شرق الأردن بحكم زواجه من سيدة الإقليم ستيفاني أف ميللى Stephanie of Milly3، الأمر الذي رفضه كونت طرابلس ريموند Raymond Count of Tripoliم (1152- 1187م). بصفة قرابته بالملك، وطالب بالوصاية على العرش، فقد كانت والدته هوديرنا Hodierna خالة عموري الأول، كما أن زوجته هي إستيفانى أف بور Stephanie of Bures أرملة ولتر أمير الجليل Walter Prince of Galilee، وعلى هذا تقرر تنصيب ريموند وصيا على عرش المملكة في العام ذاته 1174م. بعد أن خلا أمامه الطريق بأن اغتيل ميلون أف بلانسى(124).

على الجانب الآخر تحدث وليم أف نيوبره تفصيليا عمّا يجرى من أحداث في المعسكر الإسلامي، فسجل حدث وفاة نور الدين محمود على أنه وقع في الوقت ذاته تقريبا الذي توفي فيه الملك عموري(125)، علما بأن المؤرخين المعاصرين قد حددوا تاريخ وفاته الخامس عشر من مايو 1174 م.(126)، ومن ثم كان الفارق الزمني بين وفاة الملكين حوالي الشهرين، وأدرك صاحب المدونة أن مملكة نور الدين حين وفاته قد ضمت أراضي بلاد النهرين وسوريا (بلاد الشام )، بعد أن خلف والده (عماد الدين زنكي) الذي كان من الطبيعي أن يذكره بسوء " الملعون "، بينما وصف ابنه نور الدين محمود بأنه: " كان بمثابة سوط غضب الله على المسيحيين(127)"، وعليه تبدو كتابات المؤرخ النيوبَرِيّ ذات الصلة بالقائدين عموري ونور الدين قزمية مقارنة بكتابات معاصره وليم الصوري في هذا الصدد؛ نظرًا لأن الأخير بدا مسيطرا على قلمه وعالما بما يدور من حوله باقتدار، ومن ثم يقتصر فضل ما جاءت به المدونة إبان هذه المرحلة في أنها أكدت ما ورد في المصادر المعاصرة، كما أنها عكست هموم أهل الغرب تجاه الأحداث التي تجرى عند إخوانهم في الشرق اللاتيني، وأن هناك تواصلا لم يكد ينقطع مع اللاتين فيما وراء البحار.

أما شخص صلاح الدين الأيوبي فقد حاز على نصيب كبير من الاهتمام؛ ويتضح هذا في تقييم المؤرخ له، ذاكرا عنه في مواضع متفرقة أنه:" امتطى فرس سلفه نور الدين " محمود، ولعله يقصد بذلك أنه سار على دربه، كما رأى أنه لم يكن مجرد " سوط عذاب كسابقه بل كان مطرقة عذاب بالنسبة للمسيحيين"، وشرح المؤرخ باقتضاب الظروف التي أحاطت بإمساكه بالسلطة في الدولة النورية، فذكر:" أنه ابن أخي القائد الكبير شيركوه، وعندما مرض ثم توفي عام 1169 م، تولى صلاح الدين قيادة الجيش النوري في مصر(128)"، وتتفق المصادر الإسلامية مع المدونة فيما ذكرت، بيد أنها كانت أكثر إفاضة؛ حيث أوضحت الظروف التالية لذلك وكيف تولى صلاح الدين الوزارة في مصر واتخاذها قاعدة له في ظل التبعية للخلافة العباسية بداية من سبتمبر 1171 م، ثم وفاة آخر الخلفاء الفاطميين العاضد، وما حدث بعد ذلك بثلاثة أعوام تقريبا حين وفاة نور الدين محمود(129)، فأكدت ما كان وليم أف نيوبره قد ذكره عن ضم صلاح الدين دمشق في 1174 م.: " بلا ضربة ولا طعنة "، بيد أن مؤرخنا عزا حدوث ذلك بأنه:" حينما توفي نور الدين طلب صلاح الدين من أرملته عصمة الدين خاتون أن تتزوجه، وعند ذلك سلمته دمشق وأعمالها، فضمها إلى ممتلكاته "، والثابت أن هذا الزواج لم يتم إلا بعد ذلك بحوالي عامين 1176 م.(130)، ومن ثم يجب تصويب ما ظن فيه مؤرخنا من أن ضم صلاح الدين دمشق كان نتيجة لزواجه من أرملة نور الدين، وأيا كان الأمر فقد كانت هذه الخطوة بمثابة الخطوة الأساسية في توحيد الجبهة الإسلامية .

واصل صاحب المدونة حديثه عن الخطوات التي اتبعها صلاح الدين لتوطيد أركان حكمه فيقول:" ولأن الجيش التركي كان يحبه للغاية؛ قام بتطوير سلطته بالخديعة وطور خداعه بالسلطة حيث حرم الصالح إسماعيل ابن نور الدين من ميراثه، واستولى على إمبراطوريته الشاسعة للغاية "، ولم يراع المؤرخ السياق التاريخي بدقة حيث جاء في مدونته: " إن صلاح الدين أتبع ذلك بنقل قواته إلى مصر وخلع أمراء هذه الدولة من مراكزهم واستولى على المملكة المصرية شديدة الثراء، كما استولى على ليبيا والجزيرة العربية، واكتسب اسمه رفعة

عالية وسطع نجمه متفوقا على جميع ملوك الشرق، وأصبح سلطانه يشمل ثماني ممالك من أغنى البلاد، ومع كل هذه الإنجازات فقد شعر في قرارة نفسه أنه لم يفعل إلا القليل طالما أن الصليبيين الذين يحول بينه وبينهم البحر ما زالوا يسيطرون على بيت المقدس وإنطاكية ومدن سوريا الساحلية؛ ولذلك أقدم هذا الرجل الذي ليس له مثيل في دهائه وسلطانه يكرس ضدهم جميع ما لديه من قوات من شتى البلاد الخاضعة له واضعا نصب عينيه أن يلتهم الشعب الصليبي لقمة سائغة، وأن يطيح بصليب السيد المسيح في كل أرجاء مناطق الشرق حيث كان(131).

وبتتبع الكتابة التاريخية في المدونة فعلى نحو ما ورد في الفقرات السابقة نلمس قدرة المؤرخ على رصد أهم التطورات التي تجرى على الساحة الصليبية من انزواء قادة مثل: نور الدين محمود وعموري الأول بوفاتهما، وكذلك ما حدث من تحول على الساحة بسطوع نجم صلاح الدين بتوسيع إمبراطوريته بالاستيلاء على دمشق وغيرها توحيدا للجبهة الإسلامية، وأدرك المؤرخ هذا التحول في رؤية واضحة لما يصبو إليه القائد صلاح الدين ويخطط له، وأنه قصد من ذلك إزاحة الكيانات الصليبية في الشرق. ولما كان مؤرخنا مقيمًا في الغرب فتحسب له تلك الرؤية الجلية رغم بعده عن الساحة، وهذا ما سيتأكد أيضا من خلال رصده للأحداث في الصفحات التالية .

ففيما قدمته المدونة يظهر لنا إلى أي حد وضع المؤرخ وليم أف نيوبره يده على حلقات الصراع بين المعسكرين الصليبي والإسلامي، وإلى أي حد نجح صلاح الدين في تحقيق إنجازاته وفقا لخطته بغرض توحيد الجبهة الإسلامية ضد الفرنج، فتعرض في الفصل الحادي عشر الكتاب الثالث(132)إلى أبرز الجهود الصليبية كرد فعل على شروع المسلمين في توحيد جبهتهم بعد ضم دمشق، وفي ذلك يقول المؤرخ:" في حوالي ذلك الوقت، دخل فيليب كونت فلاندر Philip Count of Flanders الموقر المتصف بالتقوى والورع أرض مملكة بيت المقدس بجيش كبير، حيث كان عاقدا النية على إتمام عمل حربي ما ضد صلاح الدين، وعلى ضم أراضي جديدة إلى الممتلكات الصليبية في الشرق، إلا أن طائفة

فرسان الداوية وجهوا له إهانات شديدة، مما اضطره إلى التوجه إلى إنطاكية بناء على دعوة من أميرها بوهيمند الثالث Bohemond III (1163- 1201م) ووسط جيشه والرفاق ضرب الكونت حصارا على مدينة هارينجHareng(133) (حارم) إلا أنه لم يظفر منها بشيء، فعاود أدراجه إلى بلاده بخفي حنين مذلولا مدحورا(134) ". وقد أرخ وليم الصوري قدوم هذه الحملة في (1177 م). امتدادا للحملات الأربع التي اشترك فيها أبوه ثيرى كونت فلاندر Thiery Count of Flanders من قبل، وأضاف أن الآمال كانت معقودة من قبل أمراء الصليبيين في فيليب لإنجاز أهداف خاصة بهم، ولما بلغ المرض بالملك بلدوين الرابع ما حال دون مقاتلة المسلمين بنفسه لجأ إلى فيليب للقيام بهذه المهمة مقابل توليته الوصاية على عرش المملكة، ونظرا لتشكك الكونت في القادة الذين سيشاركونه الهجوم على مصر؛ أبدى تحفظات لم يقبلها نبلاء المملكة خاصة بيت إبلين في إقطاعية ينا، كما أظهر كل من: ريموند الثالث أمير طرابلس وبوهيمند الثالث أمير إنطاكية رغبتهما في الانتفاع بحملة فيليب لصالحهما، وغادر فيليب بيت المقدس في أواخر أكتوبر من العام نفسه وقاد أعمال حصار حارم، وعندما علم المحاصرون بقرب قدوم صلاح الدين فضوا الحصار، وعاد فيليب ثانية إلى بيت المقدس لقضاء عيد القيامة 25 من ديسمبر 1177 م. قبل إقفاله إلى القسطنطينية(135). وبذلك يكون مؤرخنا صاحب المدونة قد قدم إضافة انفرد بها موضحا بها سبباً آخر وراء انسحاب الكونت فيليب من الأراضي المقدسة إلى إنطاكية؛ حيث أشار إلى دور طائفة الداوية في ذلك .

وتتلاحق الفقرات في مدونة وليم أف نيوبره التي تتعلق بأحداث الحرب الصليبية ضد المسلمين في الشرق، مسجلا أنه:" في شهر نوفمبر من العام ذاته 1177 م. حينما علم صلاح الدين أن أرض الرب تفتقر أكثر من العادة إلى المدافعين عنها- نتيجة انسحاب قواتها للاشتراك في أعمال حارم – قام بتوجيه هجوم مفاجيء عليها على رأس قوات لا حصر لها، ولم يتوقف عند الحدود بل اخترقها متجها إلى مدينة بيت المقدس مباشرة بالرغم من أنه كان لزاما عليه الاستيلاء أولا على المناطق المتاخمة لبلاده، وحينئذ قام الأمير المسيحي

الذي عوضه ذكاؤه عمّا أصاب بدنه من جذام أي الملك بلدوين الرابع بسرعة ومعه جميع ما أمكنه حشده من جيش في وقت قصير، متأهبا لدخول معركة لم يعتبرها معركته شخصيًا بل اعتبرها معركة الله، ولم يكترث بكثرة أعداد جيش عدوه مرتكنا إلى مؤازرة الله له، دافعا أمامه صليب الرب، وما لبث أن دخل في قتال مع الأعداء بالقرب من مدينة الرملة الصحيح أنها عسقلان التي كانوا قد ضربوا عليها الحصار، وتمكن من هزيمة تلك الجيوش الجرارة.....، وقرر صلاح الدين أن يهرب، ففر بصعوبة بالغة من أرض المعركة، بينما لقي الآلاف من أتباعه حتفهم وبعون من الله أبلى المسيحيون بلاء حسنا في القتال، وكان ذلك قبل بداية شهر ديسمبر بسبعة أيام(136)"، أي الخامس والعشرين من نوفمبر من العام المذكور .

هكذا تضمنت رواية مؤرخنا معلومات قيمة تبدو كافية للتعرف على ملامح أحداث معركة تل الجزر -Montgisard كما سماها وليم الصوري- حيث سجل بدقة تاريخ وقوعها، إلا أن هناك تفاصيل لم يخطها قلم صاحب المدونة، ومن ذلك أنه اكتفى بالإشارة فقط إلى إنفاذ صلاح الدين لقواته من الساحل رأسا إلى عسقلان، وظن أن الجيش الإسلامي حاصر الرملة في حين أن الملك بلدوين الرابع كان قد حوصر في عسقلان، كذلك لم يدرك المؤرخ ما أجراه الملك الصليبي من تحركات واتصالات مع الداوية في غزة- التي كانت خاضعة آنذاك لهذه الطائفة- من أجل الالتفاف عبر البحر لمباغتة قوات صلاح الدين المتناثرة من جهة الشمال، مما أوقع الهزيمة بها جنوب شرقي الرملة، ولم يشر إلى الحالة السيئة والفوضى التي انتشرت بين صفوف المصريين أثناء الانسحاب(137). وهكذا نلمس اهتمام المؤرخ وليم أف نيوبره بأحداث عام 1177 م. الحربية، وإبراز دور الداوية في فشل حملة فيليب كونت فلاندر في الشرق، متجنباً في الوقت ذاته إبراز دور تلك الطائفة في انتصار الملك بلدوين الرابع في معركة تل الجزر، مكتفياً بإرجاع هذا النصر إلى ذكاء وشدة بأس الملك الصليبي .

ومع تزاحم الأحداث العسكرية ببروز شخص صلاح الدين الأيوبي على الساحة الإسلامية يتحدث المؤرخ وليم أف نيوبره عن معارك أعقبت معركة تل الجزر بحوالي عام، ومن

ثم فهي تؤرخ بعام 1178 م، بيد أنه مِنَ بين المؤرخين المحدثين مَنْ يقر بأن هذا العام المذكور لم يشهد سوى عدة مناوشات والرد عليها بين الفريقين الإسلامي والصليبي رغم انتقال صلاح الدين إلى مقر حكمه في دمشق(138)، وغدا يطل مباشرة على الجبهة الشمالية لمملكة بيت المقدس. واستهل مؤرخنا الأحداث في هذا العام بقوله: " اشتعل غضب السماوات ضد المسيحيين الذين أقاموا في الأرض المقدسة؛ لأنهم كانوا يسلكون سلوكًا غير قويم، ذلك أن صلاح الدين هاجم الأراضي الصليبية مرتكناً إلى تفوقه في العتاد وأعداد جيشه الضخمة رغبة منه في محو آثار هزيمة العام السابق، في حين كانت قواتنا أفضل تنسيقاً وأكثر عدداً عن ذي قبل، الأمر الذي جعلهم مغترين بقوتهم غير معتمدين على الله، وحينئذ اندلعت المعارك بين الفريقين عند التخوم الدمشقية- الجليلية، لكن الله الذي كان قد منح النصر سابقاً للمتواضعين حال دون ذلك هذه المرة، حيث وقعت مذبحة كبرى بين صفوف الصليبيين، ولقي عدد كبير من الفرسان وقادة فرسان الداوية مصرعهم، إضافة إلى أعداد كبيرة أخرى من النبلاء، بيد أن ذلك لم يكن سوى بداية أحزان الصليبيين(139)"، وهكذا تتكرر الملاحظة وهى أن مؤرخنا يهتم بتتبع دور فرسان طائفة الداوية السلبي في الأحداث التي تجرى في الشرق، فهذه هي المرة الثانية التي يحرص على ذكرهم مقرونين بالفشل الصليبي .

وفي العام التالي 1179 م. اشتعل الموقف بالقرب من بانياس من جديد، إذ يسجل وليم أف نيوبره ما تصريفه أن فرسان طائفة الداوية شرعوا في تشييد أسوار قلعة في منطقة مخاضة الأحزان دعوها قلعة مخاضة بنات يعقوب (140) Jacob's Ford على نفقتهم الخاصة بغرض كبح جماح القوات الإسلامية التي عادة ما تنطلق من قلعة بانياس، وتهدد المناطق الصليبية داخل المملكة، ورغم الأعمال الدورية من الفرسان بهدف تأمين عملية البناء وارتفاع الأسوار لم يبد القادة المسلمون أي رد فعل فوري، إنما ظلوا مستنفرين لعمل ما قد يطلب منهم لمواجهة الأمر، وصدرت الأوامر بمحاصرة القلعة الجديدة بعد أن امتلأت بالعتاد والرجال، فاجتمع الجيش الصليبي عند طبرية لرفع الحصار، ومما أخذه المؤرخ

عليهم تراخيهم في التحرك، وبعد تشاور القادة أيقنوا أنه ليس من الحكمة مواجهة كل هذه الأعداد من المسلمين بدون انتظار مزيد من الدعم يأتي إليهم من القدس مع صليب الصلبوت. ونتيجة لهذا التكاسل سقطت قلعة مخاضة يعقوب وتم تسويتها بالأرض سريعًا، كما تم قتل عدد كبير من الذين كانوا يتولون الدفاع عنها، وغنم المسلمون كميات ضخمة من العتاد والمؤن. ولم ينقض وقت طويل على صلاح الدين بعد هذا الانتصار إلا وقد توغل في أراضي المملكة الصليبية بشكل مباغت، وأعمل فيها سيفه، فاستولى على مدينة نابلس التي كانت تدعى في الماضي سخيمSychem ، وهزم الجيش الصليبي وتشرذم وهو مثخن بالجراح، وحاول الملك جاهدا جمع أشلائه (141).

وهكذا لخص مؤرخنا أسباب المعارك في العام المذكور، وما آلت إليه من نتائج لها ما وراءها، وعليه يحسن توضيح ذلك، فهو يرى أن الموقف تفجر عسكريا عند مخاضة بنات يعقوب بسبب إصرار الداوية على بناء قلعتهم هناك رغم تعهد المملكة بعدم الإقدام على تحصين المنطقة، وأن الملك نصحهم بعدم تشييدها في ذلك المكان تحديدا، بيد أنهم جمعوا الأموال لبنائها هناك، مما دعا مؤرخنا وليم أف نيوبره لاتهامهم بالغطرسة التي تستوجب العقاب الإلهي. وبالفعل فرغم محاولة صلاح الدين استعاضة الصليبيين عن بنائهم القلعة بالأموال إلا أنهم استمروا في غيهم وبنوها(142). ومن الأحداث التي يمكن أن نبرزها أيضا أن فرخشاه ابن أخي صلاح الدين ونائبه على دمشق هو الذي قاد جيش المسلمين في الجولة الأولى من القتال، وأنهم كادوا ينالون من الملك بلدوين الرابع وجيشه لولا تدخل القائد الصليبي همفري الثاني كندسطبل المملكة الذي أصيب بجروح بالغة في المعركة أدت إلى وفاته فيما بعد، ويذكر أن هذه الجولة كانت قبل حصار المسلمين للقلعة، أما حينما تم الالتحام بعد تدميرها فقد كان مقدم الداوية أودو سانت أماند Odo St. Amand من بين أسرى الصليبيين، إضافة إلى قادة صليبيين بارزين آخرين(143)، وأعقب ذلك عقد هدنة امتدت عامين بين بلدوين الرابع وصلاح الدين(144)، وهو أمر لم نجد له ذكرا عند مؤرخنا، كذلك فإن ما أورده من مهاجمة نابلس على أنه آخر أحداث المعركة في شمال

المملكة فإن هذا الحدث لم يقع إلا في سبتمبر 1183 م.(145)، ومن ثم فرواية وليم أف نيوبره لأحداث المعارك الأخيرة فوق أرض الجليل تتصف بالتعميم القائم على الوقوف على موضوع أو قضية معينة يتم سردها دون الاكتراث أو الالتزام بالسياق التاريخي بشكل دقيق، وقد يكون وازعه في ذلك هو الإتيان فقط بجوهر الأحداث .

بدأ إذن العقد الأخير من عمر مملكة بيت المقدس الصليبية بتهديدات صلاح الدين العسكرية الخطيرة تلك في الجنوب والشمال، إلا أن المؤرخ النيوبَرِيّ تنبه في خط متواز إلى وجود أخطار داخلية – ربما كانت أشد وطأة– فتناولها، ففي الفصل العاشر من الكتاب الثالث (المشار إليه سلفا) أورد أن الملك الصليبي بلدوين الرابع كان قلقا على مملكته بسبب مرضه العضال، ولذا اتخذ من التدابير:" ما يحفظ بها للذرية الملكية البقاء في حكم البلاد، خاصة وأنه لم يكن لديه أبناء، وذلك من خلال تزويج أخته" سيبيلا - Sibylla التي لم تذكر المدونة اسمها– من شخصية مرموقة تأتي من غرب أوروبا تكون جديرة بتحمل مسئولية حكم المملكة, بيد أن تفاصيل ذلك نجدها عند المؤرخ وليم الصوري الذي أوضح أنها تزوجت الأمير وليم ذا السيف الطويلWilliam Long-Sword ، إلا أنه توفي بعد وقت قصير في أوائل عام 1177 م ورغم أنها أنجبت منه طفلا (بلدوين الخامس الملك اللاحق) إلا أن المشكلة كانت لم تزل قائمة في عدم وجود وصي(146).

وقد اهتم وليم أف نيوبره في الفصل السادس عشر من الكتاب الثالث(147) بالوقوف على جوانب من الشخصيات الصليبية في الشرق التي ارتبط مصير بيت المقدس بها، فتناول من جديد قضية زواج أخت الملك بلدوين الرابع (سبيللا)، حيث ذكر:" أن الملك آثر تزويجها ثانية من أمير آخر هو جي أف بواتوهGuy of Poitou ، الذي كان قد فر هارباً من الملك هنري الثاني ملك إنجلترا تاركاً مقاطعة أكويتين بعد أن نفاه منها، ومنذ ذلك الوقت أخلص جي في خدمته لملك بيت المقدس(148)"، ويتفق روجر أف هوفدن مع مؤرخنا في هذه الرواية، ويضيف أن فرار جي كان نتيجة إقدامه على جريمة قتل باتريك إيرل سالسبرى Patrick Earl of Salisbury أثناء عودته من الحج (149).

وفي هذا الموضع أيضا أبرزت المدونة شخصية ريموند الثالث أمير طرابلس، فذكرت عنه:" كان كونت طرابلس وصيا على عرش الملك الصبي بلدوين الخامس ابن سيبيلا من زوجها الأول، ومن المفترض أنه هو الذي دس له السم فأماته 5 من أغسطس 1186 م وهو رجل عظيم وقوي، كما كان على صلة قرابة بملوك المملكة سالفا، ولذا فقد كان طامحا في أن يكون ملكا ظنا منه أنه سيصل إلى مأربه بسهوله بالتخلص من هذا الطفل القاصر لم يتجاوز السادسة من عمره، إلا أن البطريرك هرقل Heraclius( 1180-1187م) وعدد من كبار أمراء الأرض المقدسة وكذلك فرسان الداوية والإسبتارية قاموا بمنح التاج الملكي إلى سيبيلا والدة الملك المتوفى، وبصفتها أيضا ابنة الملك عموري الأول عظيم الشأن بين الصليبيين، الأمر الذي يجعلها أقرب وريث للعرش والأكثر أحقية له، بيد أنهم وجهوا اللوم لها على زواجها من رجل أجنبي جي أف بواتوه](150)."، وهكذا تركت المدونة لوليم الصوري الإفاضة في وصف الأمير من كل جوانبه الجسمانية منها والعقلية، ومدى كفايته في الإدارة والحكم، وتعلمه للغة العربية وقدرته على فهم مشاكل الفرنج المحليين وكيفية حلها(151) .

لم يكن جي أف بواتوه سوى ذلك الرجل الذي عرف في المصادر المعاصرة والمراجع باسم جي لوزينان Guy of Lusignan الذي كان قد حظي بإعجاب سيبيلا، ورغم ما أبداه أخوها الملك بلدوين الرابع من تحفظات على زواجهما إلا أنه تم عقد القران بينهما في الخامس والعشرين من ديسمبر 1180 م. وحصلا على إقطاعيتي يافا وعسقلان لهما(152)،وأكد مؤرخنا وليم أف نيوبره وقوع هذه الأحداث؛ حيث قال:" وعندما حصلت الملكة على ملكية الحصون والمدن- بمساعدة رجال الداوية والبطريرك هرقل- سلمت التاج الملكي إلى زوجها، وحينئذ تذمر النبلاء بشكل فاق كل الحسابات، ولم يستطعوا تحمل كل ما حدث، ويقفوا مكتوفي الأيدي أمام ارتقاء رجل أجنبي ليس من السلالة الملكية فوق رؤوسهم في حين أنه لا يزال- كما يعتقدون- هناك فرعا من العائلة الملكية [ لعله يقصد به فرع الملك الإنجليزي هنري الثاني يمكن من خلاله أن يكون حكم

المملكة أكثر لياقة وشرفا، وبالفعل كظم العديد منهم غضبهم وجعلهم الخوف أو قل المكر صامتين لمدة من الزمن، ومع ذلك فتظاهروا بطاعته، وتحينوا الفرصة المواتية للتنصل من سيادته عليهم(153)"، وكانت هذه الروح التي سادت المملكة قد أدت إلى انقسامات خطيرة بانقسام نبلائها إلى حزبين(154) ظلا يعكسان الوضع السياسي المتردي بين الصفوة لبضع سنين. وبذلك يتضح الفارق الواضح بين إيجاز وليم أف نيوبره وإسهاب وليم الصوري في تناوليهما للأحداث والشخصيات الصليبية في الشرق، ومع ذلك فهذا لا يعني أن الرؤية لم تكن واضحة عند المؤرخ الأول، إنما كان إيجازه يتضمن الدلائل على أنه كان مطلعاً على كثير من الأمور– خاصة الأساسية منها– التي تجرى بين اللاتين في الشرق، ويبدو أنه كان يقوم بعمله المكلف به، وهو تدوين تاريخه في إطار محدد ومرسوم .

ومازال المؤرخ يتتبع التدابير التي اتخذها الملك بلدوين الرابع حماية للمملكة والأسرة الحاكمة فيها، فقد أشار في الفصل العاشر من الكتاب الثالث– السالف الذكر– إلى قيام الملك بإيفاد هرقل بطريرك بيت المقدس في عام 1184 م. لزيارة إنجلترا ممثلا للكنيسة اللاتينية في الشرق بغرض إتمام مهمة طارئة(155)، ويوضح المؤرخ الإنجليزي المعاصر روجر أف هوفدن طبيعة تلك المهمة بأن البطريرك كان يترأس وفدا ضم كلا من مقدمي طائفة الداوية وطائفة الإسبتارية مع الشارة الملكية للملك بلدوين الرابع، ومفاتيح كنيسة الضريح المقدس وقلعة داود ومدينة القدس؛ بغرض مطالبة الملك هنري الثاني بضرورة الإسراع إلى الأراضي المقدسة لتولي عرش المملكة بصفته وريثا له وبحكم قرابته بالملك فولك أف أنجو الملك الأسبق لبيت المقدس(1131 - 1143 م. لأنه أبو جيوفرى إيرل أنجو Geoffrey Earl Anjouوالد الملك هنري. هذا وقد استقبلهم الملك في بلدة ريدنج Readingفي حفاوة وترحاب، وتعرف منهم على أحوال المملكة الصليبية(156). ومن ثم نلحظ بشكل واضح أن كتابات وليم أف نيوبره أتت مختصرة في تلك الحادثة عمّا ورد عند نظيره الإنجليزي روجر، رغم أن كليهما اتجها إلى إيجاز الحديث عن أحداث الشرق اللاتيني في الغرب، مما يعطى مؤشرا إلى أن زيارة البطريرك هرقل لم تكن لها وقع خاص عند

مؤرخنا إذا ما قيس بما تركته من اهتمام عند نظيره الإنجليزي .

ثم أجملت المدونة الأحداث العصيبة التي مرت بها مملكة بيت المقدس إبان المشاكل والاضطرابات التي أعقبت وفاة الملك الصبي بلدوين الخامس عام 1186 م..؛ حيث أوردت:" أما ريموند كونت طرابلس فقد أبدى سخطاً شديداً على اعتلاء جي العرش الملكي مرتكناً على ما لديه من سلطة ودهاء، وأعلن رفضه على رؤوس الأشهاد ومعه عدد من قادة الصليبيين الانصياع إلى سيطرة الملك الغريب الذي بادر بتوجيه الهجوم عليه، فاضطر إلى الاستسلام للسلطة الملكية نظرا لعدم كفاية قوته، وحينئذ لجأ إلى صلاح الدين وحظي بسهولة على مساعدته؛ نظرا لأنه كان يسعى إلى إضعاف القوى الصليبية عن طريق إثارة الخلافات فيما بين أحزابها في غاية من الدهاء(157)". وقد اتفق عدد من المؤرخين الغربيين والصليبيين مع مؤرخنا في روايتهم لتلك الأحداث(158).

وفي الواقع بلغت شائعة انضمام ريموند إلى معسكر صلاح الدين حداً من القوة وصل بها إلى مسامع المؤرخين المسلمين المعاصرين، وهذا المعنى أكد عليه المؤرخ ابن الأثير بشكل وثيق الصلة في استخدام العبارات(159)، وهناك من المؤرخين الصليبيين من دعمها ووصل بها حد الحقيقة، واتهم ريموند بالخيانة؛ نظرا لأنه حصل على إمدادات عسكرية من صلاح الدين لتؤازره في نزاعه مع جي لوزينان حول العرش الملكي(160)، وقد عبرت هذه الأخبار البحار حتى بلغت أذني روجر أف هوفدن(161) وكذلك وليم أف نيوبره، فأدرك خطورة هذا الوضع على المملكة، وأدرك كذلك أن صلاح الدين لديه من الدهاء ما يجعله قادرا على استثمار هذا الموقف في بث الفرقة بين المعسكر الصليبي .

وفي المرحلة التالية من مدونة المؤرخ وليم أف نيوبره نجده يتناول أحداث عام 1187م.، ذلك العام الحاسم في تاريخ الوجود الصليبي في الشرق، ففي الفصل الخامس عشر من الكتاب الثالث(162) يقر بأنه:" يكتب للتاريخ والأجيال القادمة لا لمعاصريه، حتى تكتمل العبرة ويتعظ من يتعظ."، وتناول في مرارة وحسرة تاريخ مدينة بيت المقدس وفلسطين عبر العصور، والأزمات التي واجهتها بسبب ضلال أهلها، فحق عليهم أن يلقوا

عقاب ربهم، انتهاء باسترداد تلك الأراضي على عهد البابا أوربان الثاني، كي تقع تحت السيطرة الصليبية مدة سبع وثمانين عام، ثم تناول في الفصل التالي المنازعات التي أضعفت البيت الصليبي من الداخل منهيا إياه بعرض الأحداث والكوارث التي أخذت تحيق بالمملكة بعد لجوء ريموند الثالث إلى صلاح الدين، حيث قال: " وقد أعقب ذلك أن دفع صلاح الدين في شهر مايو بقواته من الأتراك إلى الأراضي الصليبية من ناحية طبرية التي كانت آنذاك تحت حكم الملكة آشيفا أميرة الجليل، وهناك دخلوا في معركة مع فئة معينة من فرسان الداوية وتمكنوا من ذبح أعداد كبيرة من بنى جلدتنا وأقفلوا عائدين محملين بالغنائم والأسلاب. "، ونظرا لوقوع هذه المعركة في وادي به عيون تدعى كريسون فقد عرفت تاريخيا بهذا الاسم(163).

وما لبث أن اتفق المؤرخان روجر أف هوفدن وإرنول مع مؤرخنا في القول بأنه:" لم تمض سوى فترة قصيرة بعد هذه الهزيمة حتى قام ريموند بتوسيط بعض أصدقائه بينه وبين الملك جي بغرض عقد الصلح معه(164)."، ثم انفرد مؤرخنا بتحليل الموقف، فذكر:" أن الصلح الذي عقد بينهما ما كان إلا صلحاً صورياً؛ نظرا لأن هذا الأمير بل وجميع أمراء الأراضي المقدسة تقريبا كانوا قد دخلوا في اتفاقية سرية مع صلاح الدين بسبب سخطهم الزائد على الملك، وكان قد قيل أنه بموجب هذه الاتفاقية تعاهدوا على تسليم الملك الصليبي إليه، وفي المقابل عاهدهم صلاح الدين على أنه في حالة تسلمه لن يمنعهم من حق التصرف في مملكة بيت المقدس، وما حسبي بذلك إلا أنهم قد تعاهدوا مع الموت واتفقوا مع الجحيم، ظنّاً منهم أن هذا البلاء القادم لن يصيبهم حينما يأتي لزيارة الآخرين(165) .

ثمة وقفة قصيرة عند هذه الأحداث وما سبقها من مواقف داخلية في المملكة؛ إذ تأكدت ملاحظة أن المؤرخ وليم أف نيوبره قد أولى مرارا طائفة فرسان الداوية باهتمامه الواضح، حتى عن الإسبتارية– الطائفة المنافسة لها– رغم طول باعهم هم أيضا في الحركة الصليبية، وهذا واضح منذ أن أبرز دور الداوية في التخطيط السلبي للهجوم على مصر في عصر الملك عموري الأول، كما تناول قتالهم ضد صلاح الدين بالقرب من بانياس وفوق

أرض الجليل، فضلا عن حرص المؤرخ على إبراز دورهم في توجيه الأمور الداخلية في المملكة، خاصة إبان فترات الأزمات التي مرت بها كما هو واضح في مشكلة تعيين الوصي على عرش المملكة، وما ترتب على ذلك من صراع حزبي لعبت الطائفة دورا كبيرا فيه، وهذا الاهتمام سنلاحظه كذلك في الصفحات التالية من خلال إبراز دورهم السياسي والعسكري. هذا كله لم نجد له تفسيرا عند مؤرخنا وليم، إلا أنه من الممكن أن يستشف عند روجر أف هوفدن الذي أشار إلى ما أطلقه الملك هنري الثاني من تعهدات بداية من عام 1172م. بقيادة حرب صليبية والاتفاق على تقديم مائتي فارس من طائفة الداوية لمدة عام(166)، كما نقل لنا نص الخطاب القوي الذي كان مقدم الطائفة تريشوس - Terricius لعله توروجا الذي ترأس الداوية (1179 - 1184م) قد أرسله إلى الملك الإنجليزي هنري الثاني لتنفيذ عهوده، وبالفعل أرسل هنري أموالا وهبات وفيرة إلى القدس للصرف منها دفاعا عن المملكة، وقد أودع نصفها في معبد الربTemplum Domini، ولهذا دلالته إذا كانت كنيسته مقرا لطائفة الداوية، ويقع بجوارها المكان الذي يضم جسمان قتلة توماس بكت Thomas Becket(167) .وهكذا ارتبط تفضيل الملك هنري للداوية بفكرة التكفير عن ذنب، وعليه يبدو أن وليم أف نيوبره تأثر بما أحاط الطائفة من هالة سياسية بصفته إنجليزي، وربما لمس ذلك داخل قصر الملك نفسه؛ فاستحوذ عليه الاهتمام بإبراز أخبار هذه الطائفة في الأراضي المقدسة .

وفي الفصل السابع عشر من الكتاب الثالث(168) يسرد المؤرخ وقائع التحركات العسكرية بين الطرفين الإسلامي والصليبي عقب معركة عيون كريسون، ومما رواه: "إن ثمانية آلاف فارس أو يزيد– حسبما قيل– توغلوا تحت قيادة صلاح الدين الأيوبي مخترقين التخوم في ثقة زائدة، وسرعان ما توجهوا إلى مدينة طبرية، وهاجموا قلعتها التي لم يتحصن بها سوى بضعة جنود مع آشيفا سيدة الإقطاعية، وعندما بلغ مسامع الملك جي تلك الأخبار قام على الفور بجمع جيش من شتى المواقع كاسرا ما اتبعه الملوك الصليبيون السابقون من تقليد حربي بإبقاء حامية كافية في مدنهم وقلاعهم حين الدخول في معركة، وذلك حتى لا يعرضوا

المملكة إلى خدعة مزدوجة عن طريق حرمان عظام قلوبهم التي هي المدن والقلاع من المدافعين عنها التي هي في حاجة إليهم، ورغم أنهم غالباً ما كانوا ينهزمون أمام أعدائهم إلا أنهم لم يبدر منهم أبداً أن عرضوا مملكتهم لخطر الفناء، بيد أن جي- ذلك الملك الذي عينته امرأة – كان سبباً في خراب المملكة الصليبية؛ نظراً لأنه أدار دفة حكم البلاد في حمق شديد، ولم تكن الملكة براء من هذا الشر العظيم، وقد أمر بتقدم جميع قوات المملكة للقتال كتلة واحدة كما أمر قادة الجيش بإرغام المرضى على أن يسيروا جنباً إلى جنب مع الأصحاء إلى ميدان المعركة تحت إشراف منه وكأنهم بذلك يستطيعون إلقاء الرعب في قلب صلاح الدين بكثرة أعدادهم، الأمر الذي لم يجعل منهم سوى ضحايا وليسوا مقاتلين، وهكذا لم يبق في المدن سوى النذر القليل من الشيوخ مع النساء والأطفال، ومن ثم أضحى مصير كل مملكة بيت المقدس العتيدة معلقا على نتيجة معركة واحدة(169). "، وفي المصادر الإسلامية نجد ما يؤكد سوء استعدادات الصليبيين للمعركة القادمة وعجز مدنهم عن الوقوف والتصدي لصلاح الدين.(170) .

وفي الحقيقة فإن رؤية مؤرخنا وليم أف نيوبره لأحداث الإعداد لمعركة بيت المقدس الصليبية الفاصلة مع صلاح الدين تعد ثاقبة وموضوعية، ولم يضاهيه فيها أحد من المؤرخين الغربيين فيما وراء البحار الذين تم الرجوع إلى كتاباتهم، ومن ذلك أنه اتخذ موقف الناقد لما يجرى من أحداث والممحص للأمور؛ إذ قارن بين حكم الملك جي وحكم الملوك السابقين عليه، وانتهى إلى وصفه بالحمق، كما أنه لم يبريء الملكة سبيللا من انعدام حكمة الأوامر التي أطلقها زوجها الملك، الأمر الذي جعل منها شريك في كل ما يحدث، وخاصة فيما يتعلق بالقرار الخاطيء الخاص بترك مدن المملكة وقلاعها مكشوفة أمام المسلمين بزعم حشد أكبر عدد من المدافعين عنها بما فيهم الضعفاء لإرهاب صلاح الدين ويكفيها أنها هي التي عينته. ومن هذا وذاك نجد المؤرخ يؤكد باستمرار قدرته على تحليل الأحداث التي يتناولها والوصول إلى الأسباب والنتائج الخاصة بها في عمق .

أما عن المعارك في حطين فقد سلطت المدونة عليها بعض الأضواء، لعل في هديها نرى

الجديد، فحددت تاريخها بعيد ذكرى الحواريين بطرس St.Peter وبولس St.Paul الموافق السادس من يوليو 1187 م. بفارق يومين فقط عن الواقع، وهو يوم الرابع من يوليو، وقد ذكرت المدونة عن أحداثها:" من المعتقد أن ريموند الثالث كونت طرابلس قام عن قصد بقيادة الجيش الصليبي إلى منطقة صخرية ليس بها ماء، كما تكثر بها الشعاب الضيقة، رغم علمه جيدا بطبيعة تلك المناطق المحلية، فما لبث أن تعرض الجيش للخطر، مما أتاح الفرصة أمام أعدائهم لضرب الحصار عليهم من كل جانب إلى الحد الذي جعل الملك يجازف بالدخول في كل المهالك بغرض التقدم لمقابلة العدو، وذلك بناء على نصيحة من قادته النبلاء، فسمح لفرسان الداوية ببدء الهجوم، في حين قام هو بتنظيم جيشه وتقسيمه إلى فرق قتالية تسهيلا لدخول المعركة وفقاً لما لدية من إمكانيات، وفي هجمة شديدة القوة والبسالة اخترق فرسان الداوية صفوف القوات المعادية كثيفة العدد، ووضعوهم بين أمرين: إما الفرار وإما الدخول معهم في معركة، وفي هذه اللحظة اتضحت بوادر التواطؤ الشرير لرجالنا مع العدو بل وخيانتهم الشائنة؛ إذ خالف كونت طرابلس والنبلاء الآخرين مع قواتهم الترتيبات التي كان قد وضعها الملك، وتخَلَّوا عمّا أنيط إليهم من دور بتأمين فرسان الداوية في القتال؛ مما وضعهم في موقف خطير، ونتج عن ذلك أنه بينما كان فرسان الداوية يقاتلون المسلمين في بسالة موشكين على هزيمتهم تمكن أعداؤهم من تطويقهم بشدة، فوقعوا بين قتلى وأسرى، بينما سقط جيشنا إلى الأرض مغشيا عليه من الحرارة والعطش لجدب المنطقة وإقفارها من الماء(171).

وهكذا اتهم مؤرخنا الأمير ريموند الثالث بالخيانة الدامغة في هذه المرة أيضا، شأنه في ذلك شأن مؤرخ إنجليزي آخر هو روجر أف هوفدن(172)، بيد أن هناك من الباحثين من يبطل هذا الاتهام، ويرى أن ريموند كان يتلقى أوامره من الملك جي أثناء المعركة وربما من قادة آخرين مثل جيرارد ريدرفورت Gerared Riderfort مقدم الداوية (1185-1189م) من خلال أوامر الملك، وهذا يتضح في إصدار الأوامر له بالتوجه من صفورية إلى حطين فطبرية(173)، وعليه فقد يكون مؤرخنا قد انساق وراء سماع الشائعات التي أحاطت

بالجيش الصليبي في ذلك الوقت فيما يخص هذا الموضوع .

وفي هذا الظرف الحرج الذي أحاق بالقوات الصليبية يذكر المؤرخ صاحب المدونة:" إن ستة من الرجال الصليبيين سيئي السمعة ارتدوا عن دينهم ودخلوا في الإسلام وانتقلوا إلى معسكر صلاح الدين وأبلغوه بخبايا المشاكل التي يعانى منها الجيش الصليبي، وعليه قرر مهاجمة حشودهم من كل صوب، وقطع أشلائهم جميعا تقريباً، في حين لاذ الملك بالفرار، فطارده تقي الدين عمر بن أخي صلاح الدين وأسره واستولى على صليب الصلبوت منه، وأمسى مجمل الجيش الصليبي بين قتلى وأسرى، بينما تمكن النذر اليسير منهم من الفرار.....، أما كونت طرابلس فقد قيل أنه هرب ومعاونوه من ساحة المعركة، ولم يأبه المسلمون بتعقبهم(174)". ونجد شرحا عند روجر أف هوفدن لبعض المادة التاريخية المذكورة تلك، حيث ذكر أسماء ثلاثة من فرسان الملك من الستة المشار إليهم، وتفاصيل عملية أسره والاستيلاء على صليب الصلبوت(175). وإذا ما بدا صاحب المدونة مقلا في تقديم بعض التفاصيل، بينما أوردها غيره من المؤرخين الذين عايشوا الظروف نفسها، إلا أن مؤرخنا ظل متميزًا بقدرته على التحليل والنقد ووضع الأمور في نصابها بشكل أكثر عمقا ودقة، ولم يكتف بسرد الوقائع كما هو الحال عند غيره، أما حينما كان يوجه الاتهامات فعادة ما ينسبها لقول آخرين ويتعمد تسجيل ذلك .

وعن أسرى يوم حطين يذكر صاحب المدونة:" إن القائد صلاح الدين أمر بعزل من ينتمي منهم للداوية والإسبتارية الذين بقوا على قيد الحياة عن الأسرى الآخرين، ثم أمر بقطع رؤوسهم في حضرته؛ لكي يمتع عينيه بتلك البهجة التي اشتاق إليها طويلا، بيد أن سعادة الطاغية صلاح الدين كانت أكبر بأسر رينو دي شاتيون Renauld of Chatillonأمير إقطاعية..... ما وراء الأردن، حيث خصه صلاح الدين بالعقاب، إذ استجوبه في عنف، وعندما تلقى منه إجابات قوية ثابتة ذبحه بيديه، معتقدا أن الكثير من المتعة سوف تضيع إذا قام أي شخص آخر دونه بإراقة هذا الدم الغالى (176) وهنا تتجلى الروح الصليبية التي تسيطر على مؤرخنا وليم أف نيوبره، فهو من ناحية يظهر صلاح الدين

بأنه ذلك القائد الطاغية الذي يتشفى ويبتهج بقتل أعدائه، ومن ناحية أخرى أبدى إعجابه الشديد بشخص رينو؛ حيث وصفه بأنه: " يعد أكثر الرجال المسيحيين تدينا، وهو ذلك الرجل المرموق الجانب لاشتهاره بحسن القيادة في مجال الحرب وكذلك في رجاحة عقله، وهذا جلي فيه منذ إدارته القوية لإمارة إنطاكية وصولا إلى تميزه الواضح في حكم الصليبيين في الأراضي المتاخمة للجزيرة العربية(177)، ولعله من المعروف عند عدد من المؤرخين الحديثين أن هذا القائد يمثل أبرز مثل على النزعة الصليبية الممزوجة بالطيش والتهور والتطرف الديني ضد المسلمين (178)، بل وضد الصليبيين الذين أطلقوا عليه لقب اللص لما اقترفه من جرائم(179)، كما لقب بفيل الصليب تشبيها له بأبرهة الأشرم والفيل في اعتدائه على بيت الله الحرام في مكة(180).

مرة أخرى تبدو الروح الصليبية عند صاحب المدونة عندما نعت القائد صلاح الدين بما ليس فيه، وذلك حينما أقدم على جنى ثمار انتصاره الكبير في حطين، وقد خصص المؤرخ فصلا وهو الفصل الثامن عشر من الكتاب الثالث(181) لعرض النتائج المترتبة على الهزيمة في المعسكر الصليبي، وفيه يذكر أنه:" عندما بلغ الجيش المنتصر منتهاه إشباعا من ذبح الصليبيين، تحول إلى النهب، فبعد المعركة في حطين شرعوا في الاستيلاء على الأسلاب الهائلة من تلك الحشود الضخمة الذين أمْسَوْا إما قتلى أو أسرى، وما لبث أن وصل هذا الطاغية بالغ الدموية بكامل قواته إلى مدينة عكا Ptolemais الزاهرة التي تدعى حاليا وفقا لقولهصور، وتمكنوا من الاستيلاء عليها؛ نظرا لأنها بقيت مكشوفة بلا حامية- كما ذكرت سابقا- كما أنها كانت تحكم من قبل هؤلاء الذين لا يصلحون للحرب بسبب أعمارهم أو نوعهم، وذلك بموجب أوامر عليا حمقاء، ونظرا لأن صلاح الدين قد أصيب بالتخمة من ذبح الصليبيين، سمح للأعداد التي وجدها منهم داخل هذه المدينة بالرحيل دون أن يعترضهم بأذى انطلاقا من شعور بالرحمة غير مألوف بالنسبة له، وبعد هذا الفتح استدار إلى المدن والقلاع الأخرى، ونجح بعد حملة حربية قصيرة الأمد- لم يسفك فيها دماء- في إخضاع كل مراكز الثقل داخل مملكة بيت المقدس؛ إذ كان قد ترتب على معركة واحدة أن

قضى على كل حاميات المدن والقلاع، الأمر الذي لم يجد الطاغية معه أي صعوبة في الاستيلاء على أعتى حصون الصليبيين، التي كان يكفي لإسقاطها مجرد منع المؤن الغذائية عنها، اللهم ماعدا مدينة بيت المقدس ذاتها وصور وعسقلان(182)."

ولم يسجل مؤرخنا أسماء البلاد والبقاع التي استردها صلاح الدين في هذه المرحلة، بينما اهتم روجر أف هوفدن بتسجيل معظمها4، كما وقع مؤرخنا في لبس حينما اعتبر عكا هي ذاتها مدينة صور(183)؛ إذ أنه لم يميز جيدا بين المدينتين، وليس لديه خلط فيما بينهما إلا في هذا الموضع، ويتأكد ذلك من أنه أشار في موضع آخر أن بطلمية هي عكا، كما ميز بين المدينتين في تناوله لأحداث لاحقة أخرى .

ووفقا لما ذكره المؤرخ النيوبَرِيّ فقد بقيت ثلاث مدن فقط خارج سيطرة صلاح الدين داخل المملكة، وكما عددها فهي: بيت المقدس وعسقلان وصور، وحري بنا حفاظا على السياق التاريخي أن نبادر بتقديم المادة التاريخية التي وردت عند المؤرخ عن إسقاط عسقلان، رغم أنه أتى بها بعد سرده لأحداث سقوط بيت المقدس مخالفا التسلسل التاريخي، ولعل تفسير وقوعه في ذلك الزلل يكمن في أن بيت المقدس طغت بأهميتها وبالأحداث المتعلقة بها على غيرها من المدن، فذكر:" إن عسقلان لم تسلم من يد صلاح الدين، شأنها في ذلك شأن كثير من المدن الفلسطينية، وهى تعد مدينة عظيمة، فر إليها الصليبيون بعد معركة حطين لقوة تحصيناتها، كما كانت تزخر بكميات هائلة من السلاح والمؤن التي أصبح لا جدوى لها، وكان الصليبيون قد أظهروا داخلها مقاومة شديدة في الوقت الذي عرض فيه الملك جي أن يتنازل عنها لصلاح الدين مقابل إطلاق سراحه شخصيًا(184)"، والواضح أن صلاح الدين كان حريصاً على إسقاط هذه المدينة بالذات في ذلك الوقت؛ لأنها تقع: " على طريق الديار المصرية فإذا أخذت أمنت الطريق واتصلت القوافل (185) "، غير أن صليبي عسقلان لم يستجيبوا لنداء الملك بالتسليم، واستمروا في الصمود أمام هجوم صلاح الدين، حتى خارت قواهم ونفذت مؤنهم فطلبوا الأمان، فأمنهم صلاح الدين على أرواحهم وممتلكاتهم ودخل المدينة في الخامس من سبتمبر 1187 م.، بينما رحل سكانها إلى

مصر(186) ومنها إلى أوروبا.

أما مدينة بيت المقدس فقد حظيت ببعض التفصيل في رواية أحداث سقوطها، إذ وضع المؤرخ تاريخ ذلك في يوم عيد القديس ميخائيل الموافق 29 من سبتمبر 1187 م. وبعد واقعة حطين بما يقرب من ثلاثة أشهر، وهو تاريخ يسبق يوم الفتح الذي أجمع عليه المؤرخون بثلاثة أيام أي 2 من أكتوبر 1187 م.(187)، وفي ذلك يقول: " وامتد نفس هذا البلاء الناجم عن السخط الإلهي أيضا إلى المدينة المقدسة؛ إذ أرغم صلاح الدين البطريرك والأهالي – الذين تسبب الخوف في أصابتهم بالإحباط– على الاستسلام له، وحينئذ أبقى على حياتهم وحرياتهم سعيا منه فقط لأن يكتسب شرف التصدي بالرحمة، لكنه قام بطردهم من المدينة بعد أن جردهم مما لديهم من سلاح وأموال ودخلها في أبهة عظيمة(188) "، وهكذا تكرر من المؤرخ أنه حينما يضطر إلى ذكر خصال صلاح الدين الكريمة يقرنها دائما برغبته في الظهور والخيلاء وأنها بغرض اكتساب السمعة الطيبة فقط، وحقيقة فإن المجال لا يتسع للإفاضة في مدى الكرم والسماحة التي عامل صلاح الدين بها رجال الدين والأهالي إبان الفتح(189)، وهو أمر معروف متأصل فيه أقره المؤرخ نفسه بشكل أو بآخر .

ثم يستأنف المؤرخ حديثه قائلا: " عندما دخل صلاح الدين القدس قام بتدنيس الكنائس التي وضع يده عليها، وتعامل معها باعتبارها أسلاب، كما دمر الصليب الذي يمثل راية الرب بعد أن حقره وسخر منه، وأمر بتطهير معبد الرب الذي هو في حقيقة الأمر المسجد الأقصى بماء الورد وبكل توقير وذلك كما لو كان المسيحيون قد دنسوه، فلم يكن هذا المبنى في يوم ما عرضة للإيذاء ولا حتى من قبل المسلمين أنفسهم، ثم أحيا فيه الشعائر المتدنية، في حين أنه لم يبد القدر ذاته من الاهتمام بكنيسة الضريح المقدس؛ حيث استولى على جميع المقتنيات الذهبية والفضية بداخلها، كما أنه استصدر أمرا بمنح المسيحيين السريان حق الحماية والإشراف على الكنيسة بصفتهم السكان الأصليين لهذه الأرض، كذلك أصدر مرسوما يحرم على أي أجنبي أن يقترب من القبر المقدس بدون توقير(190) ."، بذلك

اهتمت المدونة بإبراز سياسة صلاح الدين تجاه الأماكن المقدسة داخل القدس عند فتحها، ولكن غلب عليها الغبن في تقييمها؛ إذ زعمت تدنيس المسلمين للكنائس، وأنكرت إيذاء الصليبيين للمسجد الأقصى، وأقرت احترام المسلمين له وتطهيره، بينما أقرت حرص صلاح الدين على إعادة الأمور في القدس إلى نصابها قبل الغزو الصليبي، في حين نجد أن الصليبيين استخدموا أبنية المسجد الأقصى في عدة أغراض: تراوحت بين جعله مقر الملك الصليبي في الفترة الأولى من تأسيس المملكة، وسكنا للفرسان اللاتين من الداوية، فمارسوا فيه فنون الحرب والقتال، وجعلوا فيه مستودعاً لذخائرهم علاوة على استخدام جانب منه كنيسة لهم، كما جعلوا من أسفل المبنى حظائر لخيولهم وفقاً للتراث المسيحي أن النبي سليمان كان قد اتخذ من الجزء الجنوبي الشرقي منه اصطبلاً(191)، ومصداقاً لذلك فإن أبا اليمن العليمي مؤرخ القدس والخليل المتَوَفَّى في أوائل القرن السادس عشر الميلادي يقول: " ولما تسلم السلطان صلاح الدين القدس أمر بإظهار المحراب داخل الأقصى، وكان الداوية قد بَنَوْا في وجهه جدارا وتركوه هويا، وقيل اتخذوه مستراحا، وبَنَوْا غربي القبلة دارا وسيعة وكنيسة، فهدم ما قدام المحراب من الأبنية، ونصب المنبر، وأظهر المحراب، ونقض ما أحدثوه(192) "، وإضافة لذلك فإن ابن الأثير يقول عن صلاح الدين إنه: " أمر بعمارة المسجد الأقصى واستنفاذ الوسع في تحسينه...، فشرعوا في عمارته، ومَحَوْا ما كان في تلك الأبنية من الصور...، وخلعوا الصليب، كما قاموا بإعادة الأبنية إلى حالها القديم...، وتطهير المسجد والصخرة من الأقذار والأنجاس... "، كما تم ترتيب المسجد وتنظيم إدارته " فعاد الإسلام هناك غضاً طرياً(193) "، وتم غسل قبة الصخرة بماء الورد(194)، ولعلنا نجد جانباً من تلك العبارات وقد اتفق مع ما ورد عند المؤرخ النيوبَرِيّ بشأن القدس .

أرجع المؤرخ صاحب المدونة مواقف صلاح الدين الكريمة تلك إلى:" إما أنه كان من منطلق الإنسانية، أم أنه كان لأجل مجده الشخصي، وفضلا عمّا سبق أظهر الرحمة بالمرضى الراقدين في مستشفى القديس يوحنا المشهورة، وأمر بأن يجب أن توجه إليهم كل العناية المطلوبة حتى يتوفوا أو يتعافوا، ثم عهد بهذا الواجب إلى بعض الرهبان من دير المستشفى،

على أن يقوموا بواجبهم هذا في حرية وأمن كاملين(195)"، والواضح أنه هو ذلك المبنى الذي اتخذته طائفة الفرسان الإسبتارية مقرا لها، وكان قد أنشأه جماعة من الأمالفيين في عام 1070م. لينزل به الحجاج المسيحيون الفقراء، وقام على خدمتهم رهبان تحولوا إلى طائفة رهبانية مقاتلة في ظل الوجود الصليبي، وفي العقد السابع من القرن الثاني عشر الميلادي، لوحظ وجود مستشفيين للجماعة بلغ اتساعهما معا ما يأوي أربعمائة من فرسان الإسبتارية عدا المرضى الذين يجهزون بكل ما يلزمهم في الحياة وبعد الممات، وفي العقد التالي وصف المبنى بأنه يضم إضافة إلى المستشفى كنيسة عرفت باسم كنيسة يوحنا المعمدان، وتم تجهيزه بالحجرات والأسرة حتى بلغ عددها ما يزيد عن الألف(196). وأياً كان الأمر فقد قدم المؤرخ الأدلة الدامغة على حسن تعامل صلاح الدين مع الطوائف المخالفة لدينه غير مرة، وعلى مضض منه برزت صورة هذا القائد المسلم مضيئة .

ومن الإجراءات التي اتخذت بالقدس وأشارت لها المدونة:" أنه بمجرد أن سقطت في يد صلاح الدين واستقر له الأمر فيها، قام بطرد سكانها الصليبيين، ثم تولى تقسيمها إلى مقاطعات قام بتوزيعها بين المقربين له.(197) "، وفي الواقع فإن ما اتخذه القائد من إجراءات في القدس بعد الفتح على هذا النحو الذي ذكره المؤرخ وليم لا يختلف كثيرا عن الواقع كما ورد عند المؤرخين المعاصرين- خاصة المسلمين منهم- مما يضفي على مؤرخنا المصداقية والموضوعية التي عهدناها فيه برغم التطاول والإيماءات التي أصدرها غير مرة، وقصد منها التشكيك في أن ما أقدم عليه صلاح الدين من أعمال خيرية ومعاملة طيبة للطوائف المخالفة لدينه كان من منطلق الدعاية الشخصية لنفسه .

وفيما يتعلق بمدينة صور، فقد ذكر المؤرخ أنها: " المدينة الوحيدة التي نجت من السقوط في يد الأعداء، وهي مدينة عريقة طبقت الآفاق بشهرتها، وقاومت على مر الزمان أعظم الهجمات، إذ يذكر تاريخها أنها قد أجهدت القائد البابلي شديد البأس نبوخذ نصر (605 – 562 ق.م. )، كما قاومت القائد الهمام الإسكندر الأكبر(198)، وسببت له كثير من المشاكل. وفي هذه المرحلة أيضا كان لهذه المدينة أن تقع في يد صلاح الدين بالسهولة التي

سقطت بها بقية المدن إلا أن حكمة الله في ألا يذرى بكل شيء خاص ببقايا الصليبيين.....، وذلك حتى يجدوا لأنفسهم وللقادمين إليهم مأوى كي يلجأوا إليه، فحفظ لهم هذه المدينة(199)."، حيث اضطر صلاح الدين إلى تركها مؤقتا، وآثر الانصراف إلى غيرها(200)، وحينئذ انكب أميرها كونراد أف مونتيفرات Conrad of Montferrat على تحصينها والدفاع عنها، وتوافرت أعداد كبيرة من الأوروبيين من دول شتى فيما وراء البحر لتنضم إلى الجيش الصليبي في صور؛ ولذا فقد أخذ موقفهم يتحول من الدفاع إلى الهجوم ضد المسلمين القريبين خارج المدينة. وراح المؤرخ يروي على مدى صفحات ما وقع من أحداث في المعسكرين الصليبي والإسلامي حول المدينة تمهيدا لوصول الحملة الصليبية الثالثة(201).

وفضلاً عمّا تناوله وليم أف نيوبره من تأريخ لمملكة بيت المقدس اللاتينية ومدنها الرئيسية بعد واقعة حطين، نجد لديه بعض الاهتمام بالتأريخ أيضا لجانب من الكيانات الصليبية الأخرى في الشام، ففي إمارة طرابلس تعرض إلى السياسة التي اتبعها صلاح الدين حيال تلك الإمارة، حيث حظيت في الوقت ذاته في نظره بوضعية خاصة؛ ففي حين سجل أنه عمد إلى تدمير مملكة بيت المقدس، نجده وقد عفا عن طرابلس ورحمها من ضرباته بناء على عهد بينه وبين أميرها. ولم ينس المؤرخ أن يسجل شيئًا عن مصير ريموند الثالث أمير طرابلس, فذكر أن ريموند ومعه رينالد Reginald سيد صيدا دخلا إلى مدينة صور وسط قلة من أتباعهما أثناء انشغال أهلها بتحصينها " كما لو كانا يطلبان اللجوء إليها وربما بغرض الدفاع عنها"، في حين كانت النية مبيتة على تأليب الأهالي ضد حاكمها كونراد أف مونتيفرات أو الاستيلاء على القلعة، ولكن سرعان ما انكشف أمرهما؛ وحينئذ أدرك ريموند عاقبة خيانته، وندم على ما اقترفه من آثام؛ فعاد إلى طرابلس حزينا في حالة أشبه بالجنون، ومات كمداً، فاختار أهلها بوهيموند الثالث أمير إنطاكية سيدا عليه (202)، وبينما يذكر مؤرخنا ذلك إلا أن دراسة متخصصة تذكر أن ريموند الابن الأكبر لبوهيموند الثالث تولى طرابلس بموجب وصية ريموند الثالث قبل وفاته (203)، بيد أن بوهيموند الثالث كان

محتاجا لجهود ابنه البكر ريموند للدفاع عن إنطاكية، فأرسل ابنه الآخر بوهيموند الرابع لحكم طرابلس (1187 – 1233م.) .

وخارج مملكة بيت المقدس أيضاً حيث إمارة إنطاكية، ذكر المؤرخ أن صلاح الدين تمادى فيما خطط له؛ فتحول سريعًا صوب أراضي إنطاكية، وتمكن من تقويض سلطان الأمير بوهيموند الثالث في تلك الجهات " إلى حد أنه بعد استيلائه على اللاذقية ومدن الإمارة الأخرى لم يترك له أي ممتلكات تقريبا خارج أسوار إنطاكية(204)"، وتؤكد الأحداث هذا الأمر، فمن الثابت أن صلاح الدين قام باختراق حدود إمارة إنطاكية غربي نهر العاصي، وتمكن من إسقاط عدة مدن وقلاع مهمة خلال صيف عام 1188 م كان من أبرزها: جبلة وحصن صهيون وأفامية، ووصل إلى جسر الحديد خارج أسوار إنطاكية من جهة الشمال، كما استسلمت حامية فرسان الداوية في قلعتي دربساك وبغراس، ولم يبق إلا فتح إنطاكية نفسها التي عزم صلاح الدين على مهاجمتها، إلا أن بوهيموند راسله طالبا عقد الهدنة معه على أن يطلق كل أسرى المسلمين في إنطاكية(205)، ومن ثم ظل مصير الإمارة الصليبية– كما صوره مؤرخنا– مدينة بلا عمق يحميها يتمثل في الأراضي التابعة لها. وهكذا فإن مؤرخنا وليم يقدم فيما يخص التأريخ للمدن الشامية مادة تاريخية إضافية جديرة بأن توضع في الاعتبار عند تقييم ودراسة الحروب الصليبية حيث إمارتا طرابلس وإنطاكية الصليبيتين، وإن كان الباحث قد عمد إلى عرضها بإيجاز لتخطيها الحدود الزمنية المحددة للدراسة .

وبين طيات كتابات المؤرخ التي تغلب عليها الجوانب السياسية نلمس فيها أحيانا ما يمس الجانب الاجتماعي، ومما يخص الكيان الصليبي في الشرق نجد المؤرخ في الفصل الخامس عشر بالكتاب الثالث(ولعله يعد أكثر فصول المدونة تحليلا وتقييما لحال الصليبيين هناك) يتعرض لإحدى الظواهر المهمة، وفيها عمد إلى تقديم رؤيته الخاصة لمجتمع الصليبيين في بلاد الشام معتبرا أن ما آلت إليه أحوالهم من تردى كان السبب في انهيار سلطانهم؛ حيث ذكر أن الأرض المقدسة لفظتهم وطردتهم بعد مرور ما يزيد عن السبع وثمانين عاما من إقامتهم

فيها كما فعلت مع الأمم العاصية السابقة، وأرجع سبب ذلك إلى ما اقترفوه من انتهاكات في حق المسيحية، وحدد في اتهامه هذا صراحة أولئك الصليبيين الذين يعرفون باسم البولانيينPullani ، معرفا إياهم بأنهم:" هم المسيحيون اللاتين الذين سكنوا في الأصل الأراضي المقدسة بعد الغزو، وما لبثوا أن تأثروا بالمسلمين كثيرا بحكم الاحتكاك وقربهم منهم؛ ولذا لم يختلفوا كثيرًا عنهم في العقيدة أو الأخلاقيات، وظهروا على أنهم نوع من الكائنات المحايدة بين المسيحيين والمسلمين من السكان"؛ الأمر الذي أدى في نظر المؤرخ إلى تدنيس أرض الله، أما فيما بعد– أي وقت تدوين المؤرخ لهذه الأسطر– فقد صار المسيحيون أكثر إخلاصا، بيد أنهم من أمم شتى فبَدَوْا " معزولين ومترفين ومسرفين ومقلدين وممثلين... فضلا عمّا شابهم من عادات وتصرفات منكرة (206)". على هذا يبدو صاحب المدونة مؤرخا موضوعيا وناقدا للمجتمع الصليبي، حيث وضع يده على جانب من المؤثرات والمتغيرات فيه، كما بدت رؤيته متشائمة تجاه هذا المجتمع سواء أقبل حطين أم بعد ذلك، فإذا ما كان البولانيون في نظره قد تسببوا في الانهيار الاجتماعي فإن حال الصليبيين بتشتتهم وتفسخ أخلاقهم وتعدد انتماءاتهم لا يجعلهم أحسن حالا من سابقيهم الرومان. وما من شك أن مؤرخنا على هذا النحو قدم نموذجا رائعا لأسلوب تفكير الأوروبيين تجاه قضية الصليبيين وإخوانهم اللاتين في الشرق أواخر القرن الثاني عشر الميلادي/السادس الهجري, كما أكد على أنه ناقد اجتماعي وتاريخي جيد قادر على تسجيل الظواهر الاجتماعية والنفاذ إلى أغوارها ومسبباتها وما يترتب عليها من نتائج .

أما فيما يخص المجتمع الإسلامي عصر الحروب الصليبية فقد أدلى المؤرخ فيه بدلوه أيضا، ففي الفصل الرابع والعشرين من الكتاب الرابع(207) يتحدث عن ظاهرة أثرت وألقت بظلالها عسكرياً وسياسياً على منطقة الشرق الأدنى بما حوت من كيانات إسلامية وصليبية؛ حيث روى:" مما يذكر أنه قد كان هناك في الشرق عنصر بشرى ما خاضع تحت سطوة مسلم قوى النفوذ يدعونه الرجل الشيخ، وبلغ خضوعهم له حدا أنه تمكن من إقناعهم بالتضحية بأرواحهم، ومن ثم فقد نجح هذا الرجل في إغوائهم بأمكر الأساليب

والوعود الزائفة حتى اعتبروه بمثابة رسول يوحى إليه؛ واعتقدوا أنهم سيحصدون ثواب ذلك في جنة النعيم في الآخرة إذا أطاعوا أوامره في الدنيا. وحينما كان هذا الرجل يستشعر وقوع هجوم من أحد القادة الأقوياء ضده أو مجرد توجسه من التعرض لهذا الخطر، كان على الفور يرسل قتلة ممن – تنطبق عليهم المواصفات السابقة– بعد تحريضهم على التخلص منه بصفته عدوا حتى يفسح أمامه الطريق، ولم يكن لدى هؤلاء الأشخاص أي مأرب أو طموح سوى تحين الفرصة المواتية لتنفيذ الأوامر على أكمل وجه؛ فقد كانوا يعرضون أنفسهم للخطر، بل والموت أثناء قيامهم بمهمة اغتيال الشخصيات المحددة لهم، وكانوا يتبارون إلى إتمام ذلك في بهجة كما لو كانوا يسارعون إلى مأدبة، ونظرا لأنهم كثيرا ما تأخذهم الجرأة عندما لا يكونون تحت المراقبة الدقيقة فيبادرون بالنفاذ من بين الحراس للقضاء على شخصية مرموقة؛ فقد احتاط الأمراء– المسلمون بصفة خاصة منهم– بأن أحاطوا أنفسهم بحراسة شديدة واعية، ولم يسمحوا إلا لأقرب المقربين إليهم من الدنو منهم إلا وهم في وسط حراسهم الخاصين، أما ملوكهم فلم يفرضوا على الرجل الشيخ الجزية، كما لم يجبروه على الطاعة لهم؛ إذ كانوا حريصين على ألا يعكروا صفوه بأي حال من الأحوال(208)". ولعل الرجل الشيخ هذا هو لقب كل من يتولى قيادتهم وكان اسم أولهم حسن الصباح زعيم طائفة الإسماعيلية الحشيشية(209)، ولما كان تأثيرهم عظيما في تلك الفترة اهتمت المدونة بذكرهم، كما استفاض المؤرخ المعاصر وليم الصوري بذكر جانب من أخبارهم ملقبا مقدمهم شيخ الجبل(210) .

أما عن الأسلوب الذي اتبعه القادة الصليبيون في تعاملهم مع طائفة الحشيشية فتوضحه المدونة على النحو الآتي:" وخلال فترة قوة الصليبيين في الشرق لم يجرؤ على التصدي لهذا الرجل وكان آنذاك يدعى سنان سوى رجال طائفة الداوية وحدهم– لما عرف عنهم من تفان إلى حد الموت في الهجوم– حتى أجبروه على إبرام معاهدة بالخضوع لهم"، ويفسر المؤرخ نجاح الداوية المذكور بما لديهم من حسن تنظيم، فيذكر أنه: " إذا ما اغتيل مقدمهم فهذا لا يترك أثرا كبيرا عليهم، إذ سرعان ما ينصبون من يحل محله، وسوف

يثورون أكثر وبانتقام أشد لذلك الذي فقدوه(211)"، ويضيف المؤرخ في استفاضة أنه على الرغم من عدم التعرف بشكل واثق على الجهة التي اغتالت الأمير كونراد أف مونتيفرات بالتحديد إلا أنه يعتقد في أن الحشيشية هم الذين نفذوا تلك الجريمة ربما بإيعاز من جهات أخرى، وهذا الأمر لم ينجلي حتى حينه (أي حتى وقت تسجيل المدونة)؛ نظرا لأنهم أثناء التحقيق معهم أظهروا عدم المبالاة لما ينتظرهم من مصير، ولم يكن الموت رادعا لهم للإقرار بالحقيقة(212).

وكما عثرنا للمؤرخ وليم أف نيوبره في الفصل الرابع عشر من كتابه الخامس- وهو الكتاب الأخير- على ما كان جديرا بأن نستهل به وقائع هذه الدراسة؛ حيث جاء في أواخر المدونة بفقرات خصصها للحديث عن تأسيس الدولة الإسلامية إيذانا ببدء الحروب الصليبية بعد صدامها مع الغرب, فقد عثرنا فيه أيضا على ما نجده مناسبا كي يوضع في خواتيمها؛ نظرا لأن الأسطر الآتية تتعلق باقتصاديات المجتمع الصليبي، وفيها يقول المؤرخ:" أما صلاح الدين الذي كان بمثابة المطرقة لكل من هو مسيحي منذ بضع سنوات خلت، فعندما أخذ في الاستعلام عن حالة البحارة من قومنا [ الأوروبيين ]، وسمع بأنهم في العادة يأكلون أنواعا عدة من اللحوم في وجبة العشاء، قال: إن هؤلاء الناس ليسوا جديرين بأن يحظوا بالأرض المقدسة، نظرا لأنه حينما وقف على حقيقة رفاهية شعبنا فقد كان مدعاة لإثارة حفيظة المسلمين ضدنا، إذ كانوا هم أصحاب السبق في قوة اقتصادنا، الأمر الذي جعلهم يقولون: لعن الله هؤلاء الرجال المنعمين الذين يجب القضاء عليهم؛ إذ ليس هناك رجاء في هدايتهم(213)". ولهذه العبارة مغزاها فهي تبين إلى أي حد تأثر المجتمع الأوروبي ايجابياً باحتكاكهم بالمسلمين، حتى اعترف مؤرخنا بأن المسلمين هم أصحاب الفضل في انتعاشهم اقتصاديا، ومن ثم ارتفع مستواهم المعيشي، حيث اعتادوا على أكل صنوف عدة من اللحم جراء معايشة المسلمين في الشرق على هذا النحو، ولمستواهم المترف صاروا هدفا أمام المسلمين للقضاء عليهم، وفي الواقع يعد تناول المؤرخ بشكل إجمالي لبعض جوانب المجتمع الصليبي وطائفة الحشيشية في بلاد الشام تدعيما لموقفه حين الحكم عليه مؤرخا

للحروب الصليبية. وبالرغم من أن رؤيته للمجتمعين الصليبي والإسلامي في الشرق كانت من بعد، إلا أنها تعد بحق رؤية طائر؛ لاتصافها بالشمولية والدقة، إذ ظهر المؤرخ فيما دونه من ظواهر اجتماعية ودينية واقتصادية- فضلا عمّا دونه كذلك في النواحي السياسية- محللا وناقدا لما وصل إلى مسامعه، وما قرأه من أخبار الشرق اللاتيني، وقد وضعه ذلك في زمرة المؤرخين المعاصرين الجديرين بالتقييم.

## الخاتمة:

وبعد الدراسة التي قُدِّمَت عن هذه المدونة التاريخية لصاحبها وليم أف نيوبره يمكن الخروج منها ببعض الانطباعات، وهى تشمل الشكل والأسلوب والصياغة والمضمون، بل تطول تقييما للمؤرخ وكتاباته، وإلى أي حد نجح أو أخفق في تقديم المادة التاريخية. بادئ ذي بدء- والحديث على العموم- نجد أن وليم أف نيوبره لم يكن دقيقا فحسب في أسلوب كتابته، إنما بلغ من التدقيق الحد الذي يقرن به مع المؤرخين أصحاب الكتابات الأكثر تطورا في عصره؛ فكثيرا ما استخدم النهج النقاد بأن حاول إخضاع الكتاب السابقين عليه والأحداث التاريخية المعاصرة إلى التحليل والنقد، كذلك قدم مادته في موضوعية، بحيث غلبت عليها روح البحث العلمي، كما اصطبغت بالسرد في بساطة، ولكن كان يراعي في سرده أن يضعه في ثوب تاريخي، فضلا عن محاولته أن يكون منصفاً عند معالجة الأحداث والقضايا التاريخية القابلة للنقاش والجدل(204) وعلى الرغم مثلا من اختصامه لقادة المسلمين- وعادة ما كان يذكرهم بسوء- إلا أنه انتقد الصليبيين واللاتين وبعض قادتهم بشدة وكَيَّل لهم التهم، وأظهر السخط عليهم في عدة مواقف. وما من شك أن الظروف التي سجل فيها مدونته كانت مهيأة بالنسبة له كي تجعل منه مؤرخا على هذا الجانب من الحيدة والنزاهة؛ فقد جاء عمله استجابة لتكليف من أرنولد رئيس الرهبان، وليس من قبل حاكم أو منتفع سياسي أو إقطاعي آخر، فتحرر من الكتابة التاريخية الموجهة، لذا فقد نجح في إخراج هذا العمل بغرض طرح العبر والعظات على الأجيال التالية، فبدا مؤرخنا واعياً لدوره متفهما لأسس فائدة علم التاريخ بشكل تلقائي، وقدم العبر من واقع التجارب السابقة، وعليه فقد

نجح في تأدية وظيفته التي أوكلت إليه لإنجازها.

ومما يُذَّكَر للمؤرخ أنه صنف نفسه بشكل غير مباشر على أنه مؤرخ إنجليزي من واقع إبراز جذوره في المعرفة التاريخية، ومن خلال اهتمامه بالتراث الإنجليزي بداية من العصر الروماني فالمسيحي فالأنجلوسكسوني فالنورماني. أما بالنسبة لموضوع الدراسة فإنه حدد غير مرة مصادره التي كان يستقى منها معلوماته، وهذا يتضح على سبيل المثال في أحداث مصرع ريموند أف بواتيه أمير إنطاكية عام 1149 م. نقلا عن أحد رجال الدين المعاونين للأمير عند إيابه إلى الغرب، وقابله المؤرخ في شبابه. كذلك نجده يشير في أحداث الجولة الثانية للملك عموري الأول على مصر أن مادتها التاريخية قد نقلت سماعا عن رجال كانوا في المعسكر الصليبي وشاركوا جيش الملك في تحركاته ومعاركه داخل مصر. كذلك تكرر عند المؤرخ التعرض إلى وقائع ترجع إلى العصر القديم، كانت قد وردت عند المؤرخ هيرودوت والمؤرخ يوسيبيوس القيصري..... الخ.، مما يؤكد على كلاسيكية ثقافته وتعليمه.

إضافة لذلك وفيما يختص بتسجيل التواريخ يلاحظ أن المؤرخ النيوبَرِيّ كان مقلا في ذكرها، إذ انحصر اهتمامه بإيراد تاريخ الأحداث الكبار مقرونة بالتاريخ الميلادي (ولادة السيدة العذراء للسيد المسيح) أو باعتلاء ملوك إنجلترا لعروشهم أو بمناسبة دينية بارزة كذكرى الرسل والقديسين. ولم يقف المؤرخ موقف المسجل فقط للأحداث، إنما قام بتحليل بعض جوانبها والوصول إلى جوهر ما يجرى بشكل عام. ولما كان مؤرخنا مقيماً في الغرب فتحسب له تلك الرؤية الجلية رغم بعده عن الساحة، ويتأكد هذا فيما اتبعه من رصده للأحداث، بيد أن تلك الظروف كانت وراء وقوعه أحياناً في زلات، يمكن أن نعدها أمورا طبيعية ومعتادة عند نظائره من المؤرخين المعاصرين.

ومن أبرز ما يتصف به المؤرخ في كتاباته أنه التزم ما أمكنه بالسياق التاريخي في الموضوعات الرئيسية التي تناولها عن الحروب الصليبية، منذ أحداث الانخراط في الحملة الصليبية الأولى وصولا إلى سقوط الرها 1144- 1146 م فخروج الحملة الصليبية الثانية حتى فشلها من 1147 - 1149 م، ثم سقوط عسقلان 1153 م.، فحملات الملك

عموري على مصر، وأحوال كل من المسلمين والصليبيين في الشرق وصدامهما الحربي، انتهاء بموقعة حطين 1187 م. وما تبعها من الفتوحات للمدن الصليبية. غير أنه من الضروري الإشارة إلى أن السياق التاريخي لم يراع في العديد من النقاط الجزئية أو التفصيلية، وهذا يتضح في التعريف بالشخصيات العامة التي يكتمل تعريفها عند المؤرخ متأخرا، وذلك بعد الحديث عن جانب واحد أو جوانب متعددة من الدور السياسي أو الحربي الذي قامت به تلك الشخصيات. ومن ذلك تعرضه إلى شخصية كل من: نور الدين محمود والملك عموري الأول وريموند الثالث صاحب طرابلس وصلاح الدين الأيوبي والملك جي لوزينان. وهذا الأمر يندرج أيضا على الأحداث التاريخية، ومنها التأخر في التعرض لأحداث الغزو الصليبي لمدينة الرها، حين شرع في الحديث عن أحداث الحملة الصليبية الأولى، ورأى أن يؤجل ذلك إلى حين حديثه عن سقوط الإمارة قبيل الحملة الصليبية الثانية؛ بصفة أن الأمرين يشكلان وحدة موضوعية قائمة بذاتها، فالحملة الصليبية الثانية في نظره لم تأت إلا كرد فعل على سقوط الرها.

كذلك نجد المؤرخ وقد أخل بالسياق التاريخي في بعض المواضع، ولكن قد يكون فيها ما يبرره؛ إذ دون وفاة الملك عموري من حيث الترتيب قبل تدوينه لوفاة نور الدين محمود، وربما يرجع ذلك إلى حرصه أيضا على الوحدة الموضوعية بأن ربط حدث وفاة نور الدين بموضوع توحيد الجبهة الإسلامية على يد خلفه صلاح الدين. وفي موضع آخر نجد المؤرخ قد أرجأ الحديث عن أحوال مملكة بيت المقدس الداخلية إلى ما بعد الحديث عن معركة حطين وسقوط القدس 1187 م.، ولعل مبرره الكامن في ذلك هو إرجاعه وقوع حدث السقوط إلى الأحوال السيئة التي آلت إليها المملكة في أواخر عهدها، ونتيجة لها. وبصفة عامة فقد يكون عدم الالتزام بالسياق التاريخي هو أبرز ما قد يؤخذ على المدونة، مع ضرورة الأخذ في الاعتبار وجهة نظر المؤرخ فيما دون.

وما يميز الكتابة التاريخية عند المؤرخ أنه اعتاد أحيانا أن يسبق عرضه للأحداث الخاصة بإمارة أو إقليم في الشرق بوضع تمهيد تاريخي له يتصف بالإيجاز يمتد من العصر القديم

وصولا إلى فترة الصراع الإسلامي الصليبي، وهذا واضح في عرضه لتاريخ الرها القديم وفضلها على المسيحية ونضالها الديني وصمودها أمام الفتوحات الإسلامية حتى الغزو الصليبي، كما يتضح في عرضه لتاريخ مصر القديم والإشارة إلى بابل ونينوى (عاصمة مملكة آشور) وقمبيز الفارسي وإلى خصائص الدولة الفاطمية التي عبر عنها بسذاجة عند مقارنتها بدولة الأتراك، وهذا بالقطع ينم عن ثقافة تاريخية كان المؤرخ قد ألم بها ربما أثناء حياته الديرية.

وقد ثبت من خلال أكثر من موضع على مدى هذه الدراسة أن المؤرخ تميز بأنه اتخذ من الإيجاز في الكتابة منهجا حتى لو توافرت لديه المادة التاريخية إدراكا منه بطبيعة وهدف ما يقوم به من عمل علمي، ومن ذلك الاكتفاء بالإشارة إلى فشل الحملة الصليبية الثانية بعودة الملكين كونراد الثالث ولويس السابع إلى بلادهما بلا مجد يخلد ذكراهما دون الدخول في تفاصيل إخفاق الحملة أمام دمشق. كذلك دمجه لوقائع حملات الملك عموري المتعددة على مصر في جولتين– ربما لتشابهها– بشكل لا يخل معه سرد الوقائع المختلفة باختصار. وأيضاً نجده قد اكتفى بالتعرض إلى محاولة ريموند الثالث أمير طرابلس وبوهيموند الثالث أمير إنطاكية الانتفاع من الحملة الفلمنكية (1177 م./أما حين الوقوف على مسببات كارثة حطين بالنسبة للصليبيين فقد استعان المؤرخ بكلمات مقتضبة لتوضيح ذلك، إذ أبدى امتعاضه من القيادة من خلال وصف جي لوزينان بأنه أحمق، وأنه الملك الذي عينته امرأة، كما أشار إلى أنها شاركته في سوء تقدير الموقف لتركهما مدن المملكة بلا عظام أي بدون المدافعين عنها.

ومما يمكن تسجيله من ملاحظات على الكتابة التاريخية في المدونة أن المؤرخ اعتاد على إبداء الاهتمام بذكر ما يتعلق بجهود الحكام والأمراء العلمانيين بدرجة أكبر من اهتمامه برجال الدين، وهذا واضح فيما دونه عن الحملة الصليبية الأولى بإبراز دور روبرت أمير نورماندیا دون التوقف عند ما لعبته البابوية من دور أساسي في الدعوة لها. وأيضا يلاحظ أن المؤرخ اهتم أثناء تسجيله لأحداث الحملة الصليبية الثانية بدور ملكي ألمانيا وفرنسا، في حين أغفل ما لعبه القديس برنارد أف كليرفو والبابا يوجينيوس الثالث من دور في قيامها. ولم يرد

ذكر لأي من بطاركة بيت المقدس سوى ذكر البطريرك هرقل الذي دخل في دائرة الضوء عند المؤرخ بسبب زيارته للملك الإنجليزي هنري الثاني في إنجلترا، هذا من ناحية, ومن ناحية أخرى كان من اللافت للنظر ميل المؤرخ واهتمامه بإبراز دور طائفة فرسان الداوية دون طائفة فرسان الإسبتارية في الأحداث حتى لو كان دورا سلبيا رغم عظم دوريهما العسكري، ويعتقد الباحث أن ذلك كان نتيجة لارتباط طائفة الداوية الروحي بأمور خاصة بالتاج الإنجليزي ولأسباب دينية وشخصية ونفسية تخص الملك هنري الثاني.

وفي العادة ما استخدم المؤرخ أسلوبًا رصينًا عذبًا به بعض المحسنات البلاغية، إضافة إلى جنوحه إلى التعبير بعبارات مختصرة تضم معاني دفينة لها مغزاها، وهذا واضح في النص الإنجليزي الذي بين أيدينا، رغم أنها لغة وسيطة ليست باللغة الأم وهى اللاتينية، ومن ثم فالمفترض أن الكتاب بلغته الأصلية قد يحمل بشكل أوضح تلك المحسنات. من ناحية أخرى فقد تكرر عند المؤرخ– شأنه في ذلك شأن بقية المؤرخين المعاصرين له– الارتكان إلى أمثلة من العهدين القديم والجديد لا تخلو من تفسير خاص به تمشيا مع الأحداث التاريخية في عصر الحروب الصليبية، وقد أشار الباحث في دراسته إلى جانب منها فقط. وقليلاً ما نجد في كتابات المؤرخ الجوانب الأسطورية أو الأمور الخارقة للعادة التي ربما تكون واضحة في كتابات غيره من المعاصرين، ومن ذلك الإشارة إلى ورود أعداد كثيفة من الخنازير البرية بشكل فجائي لقمة سائغة إلى معسكر الجيش الصليبي تحت قيادة الملك عموري خلال حملته الثانية على مصر وعلى ضفاف النيل. أما حينما تناول مرحلة بعثة الرسول والفتوحات الإسلامية فأطلق لنفسه العنان في اختلاق أو ترديد قصص ليس لها أساس من الصحة، بحيث وصمت كتاباته بالأسلوب المبتذل في هذا الاتجاه.

وخلاصة القول أنه بعد معالجة سكوت ماكلتشى لنص مدونة وليم أف نيوبره التاريخية ومساهمته الفعالة في جعلها ميسورة في متناول المؤرخين المحدثين والباحثين المهتمين بالتاريخ الأوروبي الوسيط وتاريخ الحركة الصليبية في الغرب والشرق، أصبح ضروريا أن توضع في قوائم المصادر التي ينبغي الرجوع إليها؛ نظرا لما تتضمنه من مادة تاريخية أصيلة ومدققة، معاصرة

للفترة الزمنية الواقعة بين 1066 - 1197 م. وعلى الرغم من أن المادة ذات الصلة بموضوع الحروب الصليبية في الشرق الخاصة بفترة (1099 - 1187 م.) لم تكن على ذات درجة الاهتمام مقارنة بالمادة المتعلقة بالتاريخ الإنجليزي والأوروبي في الحقبة ذاتها في المدونة، إلا أنها بعد فحصها أثبتت أنها مادة مهمة وبها ما يسد بعض الثغرات الماثلة في المصادر اللاتينية الصليبية الأخرى ويكملها أو يؤكدها. وعلى سبيل المثال فرغم الفارق الواضح بين إيجاز وليم أف نيوبره وإسهاب وليم الصوري في تناوليهما للأحداث والشخصيات الصليبية في الشرق إلا أن الأول لديه ما يضيفه أو ينفرد به أو يؤكد على حدوثه في كتابات المؤرخ الثاني كما أوضحته الدراسة. ولا يعنى إيجاز مؤرخنا للأحداث أن الرؤية لم تكن واضحة عنده، مما يستوجب التقليل من شأن مدونته، إنما كان إيجازه في تناول موضوعات البحث بمثابة أسلوب معتمد عنده في الكتابة، ويتضمن بين طياته الدلائل على أن المؤرخ بذل جهدًا واضحًا في تدوين مؤلفه، كما أنه كان مطلعًا على كثير من الأمور التي تخص اللاتين في الشرق رغم بعده الجغرافي، وعليه فإن ذلك من شأنه أن يضعه ضمن المؤرخين الأساسيين المعاصرين الذين تناولوا الحركة الصليبية في الشرق.

ذلك عرض عن المؤرخ وليم أوف نيوبره كمؤرخ للحروب الصليبية في الشرق الأوسط فيما بين عامي1099، 1117م .

## الهوامش

(1) William of Newburgh, Historia Rerum Anglicarum, ed. Howlett, R.,in Chronicles and Memorials of the Reigns of Stephen, Henry II, and Richard I,2 vols, RS no. 82, London, 1884 -1889.

(2) William of Newburgh, the Church Historians of England, vol. IV, part II, translated by: Joseph Stevenson (London: Seeley's, 1861); the electronic form of this presentation is © 1999 by Scott McLetchie, in: Internet Medieval Sourcebook.

وقد شمل التعديل تصنيف وتقسيم الفقرات الأصلية بإضافة الأرقام لها، كما تم إحلال وتبديل في حروف الكلمات الإنجليزية القديمة.

(3)وضع القديس بنديكت Benedict أسس الرهبنة الغربية في عام 529 م.، وخلال عدة أجيال شُرعت عدة قوانين لتنظيم العلاقات بين الرهبان فيما يعرف بحركة الحياة الديرية المنتظمة، وقد اتبع هؤلاء جميعا قاعدة للحياة يُعتقد أن واضعها هو القديس أوغسطين المتوفى عام430 م.، ومن ثم جاءت التسمية المعروفة بقوانين أوستين الكنسية Austin Canons نسبة إليه، وهى التي غدت ركيزة الفكر المسيحي الغربي لما يزيد عن الألف عام.انظر كولتون، ج.ح.: عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة، ترجمة وتعليق: چوزيف نسيم يوسف، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1989 م.، ص 173- 174؛ كريستوفر دوسن: تكوين أوروبا، ترجمة ومراجعة: سعيد عاشور، محمد مصطفى زيادة، القاهرة، 1967م.، ص 54، 75- 77، 251- 252.

(4) Blakeley, L., Brian & Collins Jacquelin, Documents in British History, (Early Times to 1714), 2 Vols., 2nd ed., London, 1993, vol. I., p.50 .

(5)Catholic Encyclopeadia, ed. www.New advent.org,

Art. William of Newburgh.

(6) ولد فولشر بمدينة شارتر بفرنسا في الفترة الواقعة بين سنتي 1058- 1059م.، واشترك في الحملة الصليبية الأولى في شهر أكتوبر سنة 1096م.، وكان مرافقا للملك بلدوين أف بولون Baldwin of Boulogne، وأقام معه في الرها حيث كان يحكمها نحو عامين، ثم انتقل معه إلى بيت المقدس وبقى ملازما له حتى وفاته في عام 1118م.، ثم مكث فولشر في بيت المقدس حتى عام 1127م. راجع :

Fulcher of Charters, A History of the Expedition to Jerusalem, trans. by Frances Rita Ryan, (ed.) with an introduction by Harlod Fink, Konville, U.S.A., 1969, bassim .

(7)William of Tyre, A History of Deeds Done Beyond the Sea, 2 Vols., trans. by Babcock and Krey, New York, 1943.

ولد وليم الصوري في بيت المقدس سنة 1130 م.، وهو ينتمي لأسرة فرنسية شاركت في الحملة الصليبية الأولى، وقد عاش وليم الصوري فترة شبابه في الشرق اللاتيني، وأتقن اللغة العربية واليونانية واللاتينية والفرنسية، نهل العلم من مدن: باريس، وشارتر، وأورليان، وعاد بعد عشرين عاما إلى الأراضي المقدسة، عمل في خدمة ملوك المملكة، كما أخذ يترقى في المناصب الكنسية حتى صار مستشارا للمملكة الصليبية ورئيسا لأساقفة صور عام 1174م.، ولذا كلف بمهام رسمية وسفارات مهمة، وفي عام 1180 م. حدثت تغيرات سياسية أحاطت بآماله في اعتلاء منصب بطريرك بيت المقدس، وفي أغلب الظن مات المؤرخ في عام 1184 م. أنظر:

Edbury, P.W., William of Tyre, A History of the Crusades and the Kingdom of Jerusalem (1130–1184) , in: Bulletin of the Faculty of Arts in Alexandria University, 1988, pp.43 - 52.

راجع أيضا: عمر كمال توفيق: المؤرخ وليم الصوري، مجلة كلية الآداب- جامعة الإسكندرية، عدد 21، 1970 م.، مطبعة جامعة الإسكندرية، 1969 م.، ص 18- 20.

(8) برنارد هو وكيل خزانة القديس بطرس St.Peter في دير كوربى Corbie بفرنسا كما يخبرنا في آخر سطور الكتاب، ووضع الكتاب استنادا إلى مخطوط مفقود وضعه شخص يدعى إرنول بعنوان "حروب صلاح الدين" التي تحتل جزءا كبيرا من الكتاب، ويتوقف الكتاب عند عام 1231 م. انظر:

Ernoul, La Chronique d'Ernoul & de Bernard le Trésorier, ed. Mas-Latrie, Paris, 1871, p.472 .

(9) Roger of Hovden, Annals of Roger of Hovden, The History of England and of other countries of Europe from 732 to 1201 A.D., trans. From the Latin with notes and illustrations by Henry, T.Riley ,

(10)Vols., London, 1853 .

وينتسب روجر إلى هوفدن Hovden وهى إحدى قرى يوركشير Yorkshire الآن، وقد عمل روجر أستاذا للاهوت ودخل في خدمة الملك الإنجليزي هنري الثاني قسيسا للقصر، كما عمل أمينا لسر الملك، وقد جمع في كتابه بين ما نقله عن المؤرخين الآخرين، وما دونه هو بنفسه، ويلاحظ أنه أولى اهتماما بالأحداث في الأراضي المقدسة، ويلاحظ تدقيقه فيما كتبه هو بنفسه منذ عام 1155 م. انظر:

Ibid, vol. I, pp.I-XII.

(11)William of Newburgh, Op.Cit., Introduction .

(12) Catholic Encyclopeadia, Op.Cit.

وقد تعرضت الجزائر البريطانية فيما بين منتصف القرن الخامس ومنتصف القرن السادس الميلاديين لموجة أولى من الغزوات الجرمانية (الأنجلو- سكسون)، ولما نشب الصراع ضد أهل البلاد تحت قيادة المناضل آرثر تمكن من إحراز سلسلة من الانتصارات عليهم مما أبرز

شخصيته بين شعبه في شيء من الخيال بعد أن انتزع إعجابهم الشديد به. راجع: محمد محمد مرسى الشيخ: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1990 م.، ص 121 - 122.

. William of Newburgh, Op.Cit., Introduction.

(14) وضع هذا الفصل تحت عنوان: "عن محمد الرسول المزعوم وعن القانون الذي قدمه من خلال روح الخطأ، وكيف أصاب نفس هذا القانون العديد من الأمم بالعدوى". أنظر:و ذلك يدل علي تعصبه الأعمي ضد أشرف الخلق عليه الصلاة والسلام .

Ibid, bk. 5, ch. 14: 1 - 12.

المقصود به بابا روما الشهير جريجورى الأول الذي تولى الكرسي الرسولي ما بين 590 – 604 م.

(15) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 5, ch. 14: 1, 3.

(11)William of Newburgh, Op.Cit., Introduction .

(12) Catholic Encyclopeadia, Op.Cit.

وقد تعرضت الجزائر البريطانية فيما بين منتصف القرن الخامس ومنتصف القرن السادس الميلاديين لموجة أولى من الغزوات الجرمانية (الأنجلو- سكسون)، ولما نشب الصراع ضد أهل البلاد تحت قيادة المناضل آرثر تمكن من إحراز سلسلة من الانتصارات عليهم مما أبرز شخصيته بين شعبه في شيء من الخيال بعد أن انتزع إعجابهم الشديد به. راجع: محمد محمد مرسى الشيخ: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1990 م.، ص 121 - 122.

(13)William of Newburgh, Op.Cit., Introduction.

(14)وضع هذا الفصل تحت عنوان: "عن محمد الرسول المزعوم وعن القانون الذي قدمه من خلال روح الخطأ، وكيف أصاب نفس هذا القانون العديد من الأمم بالعدوى". انظر:

Ibid, bk. 5, ch. 14: 1 - 12.

المقصود به بابا روما الشهير جريجورى الأول الذي تولى الكرسي الرسولي ما بين 590 – 604 م.

(15) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 5, ch. 14: 1, 3.

(16) چوزيف نسيم يوسف: العدوان الصليبي على بلاد الشام، الطبعة الثالثة، إسكندرية، 1971 م.، ص97- 107.

(17) نسبة إلى السيدة هاجر زوج إبراهيم – عليه السلام- الذي أنجب منها إسماعيل- عليه السلام- ومما قيل عنه أنه من المستعربة، وتعد قبيلة بنى إسماعيل من جرهم التي أقامت في مكة، والقبيلة تنقسم إلى عمارات ومنها قريش، والعمارة تنقسم إلى بطون مثل بطن بنى عدي، وتنقسم البطن إلى أفخاذ مثل فخذ بنى هاشم وبنى أمية، وينقسم الفخذ إلى فصائل كفصيلة بنى العباس، عم الرسول عليه الصلاة والسلام.انظر: القلقشندي، (ت 821 هـ./14111- 14بو العباس أحمد بن على بن أحمد عبد الله: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق: إبراهيم الإبيارى، طبع دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1405 هـ./1984 م.، ص 11- 14.

(18) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 5, ch.14: 1 - 3.

(19)Ibid, bk. 5, ch.14: 3 -7.

(20) وهنا إشارة واضحة من المؤرخ إلى سماح الإسلام بتعدد الزوجات الذي أعده شهوة جسدية من قبيل الزنا.

(21)Loc.cit.

(22) حمل سبريان لقب قديس، ولد في أسرة وثنية حوالي عام 200 م.، وتلقى تعليمه في أسقفية قرطاج بشمال أفريقيا، وما لبث أن أصبح له أفكاره وتعاليمه التي لقيت صدى واسع بين العامة والفقراء، كما لعبت دورا مميزا في الحفاظ على اللغة اللاتينية التي كتب بها الإنجيل في العصور الوسطى، فبرز واحدا من أعظم ثلاثة أساقفة في أفريقيا عرفتهم الكنيسة، كما يعد من أكبر من وضعوا نظمها، امتدت شهرته إلى كنائس غالة وأسبانيا غربا، كما اشتهر

عنه محاربته للهرطقة والخروج عن الدين الكاثوليكي، وُقتِلَ إبان موجة الاضطهادات التي شهدتها قرطاج في أواسط القرن الثالث الميلادي، فأصبح يمثل أول شهداء الكنيسة في شمال أفريقيا. ولمعرفة المزيد راجع:

Raven, Suzan, Rome in Africa,3rd ed.,London,1992,pp.124,157 - 161,167 - 168.

(23) ينتسب القديس أوغسطين إلى مدينة هيبو Hepo بإقليم نوميديا (الجزائر) بشمال أفريقيا، وُلِدَ بها عام 354 م. كان وثنيا ماجنا ثم أعتنق الكاثوليكية، وأصبح حجة في الشئون الكنسية حيث يعد من أبرز فلاسفة المسيحية بعد أن وضع عدة نظريات في الدين شملتها مؤلفاته، ولعل أهمها كتاب مدينة الله City of God، الذي دافع فيه عن المسيحية ضد الفلسفة الوثنية، وقد تأثر رجال الدين والرهبان بما ورد فيه من أفكار كثيرا، كما ترك أثرا في تنظيم الكنيسة وإصلاحها، وجعلته مؤلفاته أحد الأربعة الذين وضعوا النظريات التي بنيت عليها النظم الكنسية، وعليه ينسب إليه أنه هو الذي أتم التطور اللاهوتي الغربي، وزود الكنيسة بالآراء التي غدت دعامة الفكر المسيحي الغربي لألف ونيف من السنين، ونظرا لانتشار المذهب الدوناتى المخالف للكاثوليكية في شمال أفريقيا؛ خاض ضد أتباعه حربا ضروس، وتوفى أثناء حصار مدينته هيبو في عام 430 م. انظر:

Raven,Suzan,Op.Cit.,pp.123 - 124,174 - 195 .

(24) William of Newburgh, Op.Cit., bk.5, ch. 14: 8 - 12 .

ويأتي مستشهدا بالعهد القديم: " وقلت إلى هنا تأتى ولا تتعدى، وهنا تُتْخَمُ كِبْرِيَاءُ لُحَجِكَ" [ أيوب 11:38].

1Fulcher of Charters, Op.Cit., pp.60 - 67; Raimond d'Agiles, Historia Francorum qui ceperunt Iherusalem, en: Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Occidentaux, tome III, Paris, 1866, pp.292- 302; William of Tyre, Op.Cit., pp.336 - 337, 391.

(25)وضع تحت عنوان: "وليم روفوس- الملك النورمندي الثاني لإنجلترا- وأيضا حول الحملة على القدس". انظر:

William of Newburgh, Op.Cit., bk. 1, ch. 2: 1 – 5.

(26) عندما توفى وليم الفاتح عام 1087 م.، توج ابنه وليم روفوس ملكا- بتوصية من أبيه- حتى عام 1100 م.، رغم أنه لم يكن الابن الأكبر، فحكم إنجلترا حكما استبداديا، ودخل في صراع مع أخيه الأكبر – غير الشرعي- روبرت كارثوس حول العرش الإنجليزي إلى أن اغتيل وليم أثناء رحلة صيد في عام 1100 م.

راجع:

William of Newburgh, Op.Cit., bk. 1, ch2: 1; cf. also, Lane Poole, Austin, from Domesday Book to Magna Carta 1087 - 1216, 2nd ed., Oxford, 1954, pp.113 - 115.

(27) تميزت دوقية نورمندي في شمال فرنسا في تلك الآونة بأنها أفضل تنظيما من الناحية الإدارية، ومع ذلك فقد كانت أقل ثروة، وكان وضعها الجغرافي لا يسمح لها بالتوسع، إلا أنه بفضل طموحات أدواقها؛ كانت لها اليد العليا بعد الغزو النورماني لإنجلترا 1066 م.، ومنذ ذلك الوقت أصبح النورمان أقل خطرا على جيرانهم داخل القارة الأوروبية ذاتها. راجع:

Warren, W.L., Henry II, ed. London, 1977, p.7 .

William of Newburgh, Op.Cit., bk.1, ch3: 2.

وصف روبرت- الابن الأكبر لوليم الفاتح- بدماثة الأخلاق وحسن التعامل والشجاعة، بيد أنه كانت تنقصه الكفاءة وحسن الإدارة، استقل بحكم مقاطعة نورمندي، بينما واصل المطالبة بحقه بالعرش الإنجليزي؛ فاستأنف غزو إنجلترا بعد وفاة أخيه، ولكن هنري الأول تصدى له، بل قام في عام 1106 م. بغزو نورمندي وضمها إلى أملاكه. انظر: سعيد عبد الفتاح عاشور: أوروبا العصور الوسطى، جزءان، الطبعة السادسة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1995 م.، جـ1، ص 458.

(28)William of Newburgh, bk.1, ch. 3: 4 .

اكتفى وليم أف نيوبره في موضع لاحق بالإشارة إلى فضل البابا أوربان الثاني في إسقاط القدس. انظر:

William of Newburgh, Op.Cit., bk.3, ch.15: 3 - 4.

(29) للوقوف على ما ورد في خطبة البابا أوربان، راجع نصها في:

Fulcher of Charters, Op.Cit., pp.63 – 65.

(30) Fulcher of Charters, Op.Cit., pp.73, 75, cf. also William of Tyre, Op.Cit.,vol. I, pp. 148 - 149, 177 - 178 .

تزوج ستيفن كونت بُلُوا من إديلا Adela ابنة وليم الفاتح في عام 1081 م، وترتب على هذه الزيجة أن أصبح لإقطاعية نورماندي Normandy وضعية سياسية خاصة. انظر:

Warren, W.L., Op.Cit., p.13 .

(31)Runciman, S., A History of the Crusade, 3 Vols., Cambridge, 1951 - 1954,vol. I, Appendix II, pp.336 - 341

(32) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جزءان، الطبعة السابعة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1997 م.، جـ1، ص 125.

(33)Fulcher of Charters, Op.Cit., pp.73 -74, 81 - 82 .

(34) Roger of Hovden, Op.Cit.,vol. I, p.180 .

(35) William of Newburgh, bk. 1, ch. 3: 4 -6.

(36)Fulcher of Charters, Op.Cit., p.82; William of Tyre, Op.Cit.,vol. I, pp.152- 153.

سعيد عاشور: المرجع السابق، جـ1، ص 130.

(37) Oman, Ch., History of the Art of War in the Middle

Ages, 2nd ed., 2 Vols., New York, 1924,vol. I, p.272.

( 38) الموضوع تحت عنوان: "عن أسباب الحملة الصليبية الثانية على القدس". انظر:

William of Newburgh, Op.Cit., bk. 1, ch. 18: 1 - 4.

(39) هو الملك ستيفن أف بُلوُا (1135- 1154 م.) ابن الأمير ستيفن كونت بُلوُا وشارتر، الذي كان قد شارك في الحملة الصليبية الأولى مصاحبا الأمير روبرت النورمندي.

(40) بشأن مسمى الرها، يلاحظ أن المؤرخ جمع بين مسماها القديم Orrhei واسمها الآخر Edessa في كلمة واحدة. انظر:

William of Newburgh, Loc. Cit.

تعرضت المصادر السريانية المعاصرة للحروب الصليبية لمسمى المدينة القديم "الرها"، وأوضحت أنه يتألف من شقين: أور Our بمعنى مدينة، ولما كان يسكنها الكلدانيون أضيف إلى هذا الشق هاي hai؛ لتصبح أورهاي، أي مدينة الكلدانيين. ولمعرفة المزيد راجع:

Michel le Syrien, Chronique de Michel le Syrien,éditée et traduite en français par Chabot, J.B., 3 tomes, Paris, 1906, tome III, p.278.

وعمّا شهده المسمى من تطور وتحريف عبر عصور مختلفة راجع: علية عبد السميع الجنزورى: إمارة الرها الصليبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2001 م.، ص 23 – 25، وتخلص الباحثة إلى أن أشهر مسميات المدينة على مر العصور هي: الرها العربية، وأدسا الإفرنجية، وأورفا الحالية.

(41) دخلت الرها في حوزة الإمبراطورية الرومانية عام 216 م.، ثم دخلت تحت سيطرة مملكة تدمر 257 - 273 م.، وذلك قبل دخولها المسيحية.

Encyclopedia of Islam, art. Rohha .

(42) من المؤكد أن من أسباب ارتفاع مكانة مدينة الرها الدينية أنها تضم رفات بعض

الحواريين مثل: توما Thomas وتداوس Tedaws. انظر: العهد الجديد: إنجيل متى, طبعة المرسلين اليسوعيين، بيروت، 1937 م.، 3:10.

(43) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 1, ch.18.

كانت الرها قد اتخذت اتجاها غربيا عندما أعيد تأسيس كنيستها على أسس من الاتحاد الوطيد مع الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، وتم ذلك تحت رئاسة الأسقف بالوت. راجع: علية عبد السميع الجنزورى: المرجع السابق، ص 29.

(44) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 1, ch. 18: 3 .

(45)William of Tyre, Op.Cit.,vol. II, p.158

(46) علية عبد السميع الجنزورى: المرجع السابق، ص 30.

(47) يذكر المؤرخ يوسيبيوس (264 – 340 م.) أن السيد المسيح قد أوعز إلى توما أحد الحواريين الاثنى عشر الذي أرسل تداوس أحد التلاميذ السبعين لشفاء أبجارا حاكم أدسا– الرها (13 – 50 م.)، أما المنديل المقدس فقد شاع أنه إذا ما غسل السيد المسيح وجهه انطبعت عليه صورته، فأخذت هذه الصورة إلى الرها لتحفظ المدينة من أعدائها. ولمعرفة المزيد راجع: يوسيبيوس القيصري: تاريخ الكنيسة، ترجمة مرقص داود، الطبعة الثالثة، القاهرة، 1998 م.، ص 46، هـ.3.

(48) Anonymus, Gesta Francorum Iherusalem, ed. Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Occidentaux, Tome III, Paris, 1866, p.543 .

(49) Grégoir le Prêtre, Continuation de Mathew d'Edessa's chronicle, Recueil des Historiens des Croisades, Documents Armeniens,2 Tomes, Paris, 1869-1906, tome I, p.159.

وللمزيد عن رسالة الملك أبجر والرد عليها من السيد المسيح انظر: علية عبد السميع الجنزورى: المرجع السابق، ص 30 – 31.

(50) البلاذري، (ت 279 هـ./892 م.) أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر البلاذرى: فتوح البلدان، تحقيق: عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع، القاهرة، 1956 م.، طبعة أخرى، 5ج, بيروت، 1957 م.، جـ 5، ص 177.

(51) Ostrogorsky, G., History of the Byzantine State, Oxford, 1956, p.285 .

(52)Michel Le Syrien, Op.Cit., tome III, p.280 .

(56) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ1، ص 97 – 98.

(57) Grousset, R., L'Epopée des Croisades, Paris, 1939, p. 56 .

(58)Fulcher of Charters, Op.Cit., pp.89 -92; cf. also William of Tyre, Op.Cit., vol. I, p.188.

(59) راجع: الدراسة المتخصصة عن تلك الإمارة التي أقامها اللاتين في الشرق في: حسين محمد عطية: إمارة إنطاكية الصليبية والمسلمون (1171- 1268 م./ 567- 666 هـ.)، الإسكندرية، الطبعة الأولى، 1989 م.

(60) William of Newburgh, Op.Cit., bk.1, ch. 3: 1 –
(61).Idem.
William of Tyre, Op.Cit., p.366
(62)William of Newburgh, Op.Cit., bk.1, ch. 3: 4 -6.

(63)Roger of Hovden, Op.Cit.,vol. I,pp.191 - 192.

(64) Fulcher of Charters, Op.Cit., pp.167 - 169 .

هذا وقد ترك ستيفن ابنين: هنري Henry وستيفن Stephen في سن صغيرة، تحت وصاية خالهما الملك هنري الأول، وقد نشأ هنري الطفل نشأة دينية بصفته راهبا. انظر:

Warren, W.L., Op.Cit., p.13 .

(65) Tyreman Christopher, England and the Crusades

1095 - 1588, Chicago, 1988, pp.13 -84.

سعيد السيد فرغلى: دور إنجلترا في الصراع بين المسلمين والصليبيين 1095- 1189 م./488- 585 هـ.، رسالة دكتوراه لم تنشر بعد، آداب الإسكندرية، عام 2000 م.، ص 54 - 135.

(66) أشار وليم الصوري إلى اسم رئيس الأساقفة وهو هيو الثاني Huge II الأسقف اللاتيني الذي ذُبح في المحراب، وكان يتزعم المقاومة الصليبية ضد المسلمين.

William of Tyre, Op.Cit.,vol. II, p.143.

(67) William of Newburgh, Op.Cit., bk.1, ch.18: 3.

كان حكام الرها الصليبيون يسيطرون على الأراضي الممتدة من تخوم ماردين إلى الفرات، حيث حصون سروج والبيرة وسن بن عطير وجملين والموزر، فضلا عن مدينتي الرها وتل باشر التي اتخذت مركزا للحكم في الفترة الأخيرة. انظر: علية عبد السميع الجنزورى، المرجع السابق، ص 304.

(68) Runciman, S., A History of the Crusades, 3 Vols., Cambridge, 1952,vol. II, pp.247 - 248.

(69) Bernard of Clairvaux, Some Letters of Saint Bernard abbot of Clairvaux, from the translation of the late Tales, Vicar of Satisfield, selected by Francis Aidan Gasquet, D.D., London, 1994, p.49, No.XII, p.121, No.XXIX.

(70)يقع هذا الموضوع تحت عنوان: "كيف قاد الإمبراطور كنراد والملك لويس قواتهما إلى الشرق". انظر:

William of Newburgh, Op.Cit., bk. 1, ch.20: 1 - 3.

(71) Ibid, bk.1, ch. 20: 1; cf. also Roger of Wendover, Flowers of History, 2 Vols., trans. From the Latin by Gilles, J.A., London, 1849, vol. I, p.449.

(72) ويقع تحت عنوان "عن طلاق ملك فرنسا من زوجته وزواجها من ملك إنجلترا المقبل". انظر:

William of Newburgh, Op.Cit., bk.1, ch.31: 2.

(73) Ibid, bk.1, ch.31: 1.

(74) Roger of Wendover,Op.Cit.,vol. I,p.449.

(75)هكذا ورد عند المؤرخ البيزنطي كيناموس بهذا الاسم. انظر:

Kinnamos,John, Deeds of John and Manuel Comnenus, trans. by: Charles, M. Brand, New York, 1976, pp.67 - 68.

(76)William of Newburgh, Op.Cit., bk.1, ch.20: 1 .

(77) بغرض ضم الرها بعد بلدوين الأول أمير إفرنجي آخر هو بلدوين أف بورج الذي حاز محبة الأرمن وتقديرهم؛ حيث تقرب إليهم بالزواج من ابنة الأمير الأرميني جبريل، وقد أعانه هذا الزواج كثيراً على توطيد نفوذه، أما عن الحاكم الثالث للرها جوسلين الأول فقد جاء في وصف وليم الصوري له:" كان ذا خبرة واسعة بالحياة والناس، حذرا في كل ما يفعله، يظهر تعقلا شديدا في معالجة الأمور، وترتيب وتنظيم شئونه الخاصة"، وكان زواجه من ابنة ليون– التي أنجب منها جوسلين الثاني الذي حكم الإمارة من عام 1131 إلى 1150 م.– بغرض توطيد علاقته بالأرمن، وكان قد أبدى تهاوناً أدى إلى ضياع الإمارة؛ نظرا لاستسلامه كلية لميوله المنحرفة وعدم الاكتراث بتقوية جيشه وتحصين القلاع أمام التهديدات الإسلامية، كما خلد إلى الراحة بعيداً في تل باشر عن الأخطار المحيطة بمقر الإمارة في الرها. انظر:

William of Tyre, Op.Cit.,vol. I, p.450,vol. II, pp.52- 5 3, 140 - 142.

راجع أيضا الدراستين المتخصصتين في تاريخ أسرة كورتناى:

Nicholson, R.L., Joscelyn I, Prince of Edessa, The University of Illinois, 1954, pp.52-61, 88 -91; Joscelyn

III and the Fall of the Crusader States (1134 - 1199), The University of Illinois,1973,pp.4 - 21 .

(78) ابن القلانسى: المصدر السابق، ص 282.

والتاريخ الذي ذكره وليم أف نيوبرة يتفق مع ما أورده أحد المؤرخين المعاصرين الآخرين من أن خروج الحملة كان في يونيو 1147 م. / محرم 542 هـ. انظر:

William of Newburgh, Op.Cit., bk.1, ch. 18: 1 ;

Odo of Deuil, De Profectione Ludovici VII in Orientem, edited with an English translation by Virginia Gingerick Berry, New York, 1948, p.11 .

(79)William of Newburgh, Op.Cit., bk.1, ch. 18: 1- 2,ch. 21:1.

استخدم المؤرخ وليم أف نيوبره لفظة الإمبراطور لصيقة باسم كنراد الثالث؛ نظرا لأنه أضفى على نفسه هذا اللقب، وذلك خاصة في مراسلاته مع الأباطرة البيزنطيين حتى يكون ندا لهم، الأمر الذي يفسر شيوع اتخاذه اللقب، والواقع أن كنراد مات في 15 فبراير 1152 م. وهو في طريقه إلى روما للحصول على التاج الإمبراطوري. راجع: محمود سعيد عمران: السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عهد الإمبراطور مانويل الأول (1143 - 1180 م.)، دار المعارف، 1985 م.، ص 137، هـ.3.

7Ibid, bk.1, ch. 20: 1 - 2 .

(80)Kinnamos, J., Op.Cit., pp.68 -69.

(81)Roger of Wendover,Op.Cit.,vol. I,p.449

(82) راجع نص العبارة التوراتية:" قم قدس الشعب وقل تقدسوا للغد. لأنه هكذا قال الرب إله إسرائيل. في وسطك حرام يا إسرائيل فلا تتمكن للثبوت أمام أعدائك حتى تنزعوا الحرام من وسطكم"، العهد القديم: سفر يشوع 7: 13.

(83)William of Newburgh, Op.Cit., bk. 1, ch. 20: 2.

(84) Odo of Deuil,Op.Cit.,pp.46 - 47,75.

(85) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 1, ch. 20: 3.

(86)William of Tyre, Op.Cit.,vol. II,pp.168 - 172.

(87) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 1, ch. 20: 2.

(88) William of Tyre, Op.Cit.,vol. II,pp.163 - 184.

(89) Roger of Hovden, Op.Cit.,vol. I,p.250 .

(90) انظر: ع تحت عنوان " عن ريموند أمير إنطاكية والاستيلاء على عسقلان ". انظر :
William of Newburgh, Op.Cit., bk. 1, ch. 21: 1 - 2 .

(91)المكابيون: هم أسرة عبرانية كان أولهم متاثياس وجاء من بعده ابنه يهوذا الذي اشتهر بالمكابي، وما لبث أن شمل هذا المسمى جميع أفراد الأسرة التي شكلت حزباً مقاوماً للسلوقيين الوثنيين وأبدت ألوانا من البطولات في محاربتهم في فلسطين، وذلك في الفترة من 168 إلى 104 ق.م. فحصلوا على الاستقلال، وظل المكابيون يمثلون حزب اليهود في التعامل مع كل من: السلوقيين ومن بعدهم الرومان إبان حكم هيرودس الكبير (37 – 4 ق.م.). انظر: بطرس عبد الملك وآخرون: قاموس الكتاب المقدس، بيروت، (د. ت.)، مادة: مكابيون.

(92) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 1, ch. 21: 1.

(93)William of Tyre, Op.Cit.,vol. II, pp.59 -60, 78 -79.

(94)ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 304 - 305.

William of Tyre, Op.Cit.,vol. II,pp.196 – 198.

(95) William of Newburgh, Op.Cit.,bk. 1, ch. 31: 1 .

والأمير هنري هو ملك إنجلترا الملقب بهنري الثاني 1189 - 1154) Henry II م. وقد حاز على ملكه من خلال وراثة أمه ماتيلدا- ابنة الملك هنري الأول- وعلى دوقية نورمنديا من أبيه عام 1149 م إضافة إلى مقاطعة أنجو في 1150 م.، وبزواجه من إليانور

ووفاة أخيه حكم أكثر من نصف فرنسا، وحينما توفى ستيفن أف بُلُوا آل حكم إنجلترا إلى هنري. راجع على سبيل المثال:

Roger of Hovden,vol. I,pp.251 - 252,254 .

(96) William of Newburgh, Loc.Cit .

ويضيف وليم أف نيوبره توضيحا لحدود إقطاعية أكويتين أنها امتدت من إحدى إقطاعيتي بريتانى Brittany وأنجو Anjou إلى جبال البرانس، وقد آلت إلى التاج الإنجليزي بحكم زواج إليانور من الملك هنري الثاني الذي كان أمير( دوق) نورمندي في ذلك الوقت، الأمر الذي جعل الملك لويس السابع يتميز غيظا، وإضافة إلى هذه المعلومات قدم المؤرخ مزيدا من التفاصيل عمّا ترتب من نتائج طلاق إليانور ثم زواجها، موضحا بذلك خلفية الأحداث التي وقعت في أوروبا مرحلة ما بعد الحملة الصليبية الثانية.

(97)Roger of Hovden, Op.Cit.,vol. I, p.254.

(98) William of Tyre, Op.Cit., vol. II,pp.178 – 180

(99) اختلف المؤرخون الصليبيون في تحديد تاريخ تأسيسها، وإن كان قد انحصر في الفترة الواقعة بين عامي 1118 و1120 م. ويرجع الفضل في تأسيس طائفة الداوية إلى فارس شمباني اسمه هيو أف باينز Hugh of Payens الذي تمكن من إقناع بلدوين الثاني بالسماح له ورفاقه بالنزول بساحة المعبد( المسجد الأقصى )، وقد خضعت الطائفة إلى القواعد الرهبانية المسكونية، وما لبثت أن أضحت مستقلة، وبمرور الوقت أخذ دور فرسان الداوية العسكري في النمو حتى أصبحوا يلعبون دورا مميزا في تاريخ الحركة الصليبية. راجع:

William of Tyre, Op.Cit.,vol. I,p.524.

وراجع أيضا: إبراهيم خميس: جماعة الفرسان الداوية وعلاقتهم السياسية بالمسلمين في الشرق الأدنى الإسلامي (1118- 1193 م./ 512 - 589 هـ.)، رسالة ماجستير لم تنشر بعد, كلية الآداب, جامعة الإسكندرية, 1980 م.، ص 47- 48.

(100)William of Newburgh, Op.Cit., bk.1, ch. 21: 1 - 2.
(101) Loc.Cit.
( 102) ابن القلانسى: المصدر السابق، ص 497؛ ابن الأثير، (ت 1230 م.) عز الدين أبو الحسن على بن أبى الكرم بن عبد الواحد الشيبانى الجزري: الكامل في التاريخ، 12 ج، بيروت، 1979 م.، جـ11، ص 188- 189؛ سبط بن الجوزي، (ت 1257 م.) أبو المظفر شمس الدين يوسف بن قزاوغلى: مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، المجلد الثامن، ق 1- 2، حيدر أباد،/1951 م.، ق 1، ص 209.
(103) يقع هذا الموضوع تحت عنوان "عن حملتي عموري ملك بيت المقدس على مصر"، انظر:
William of Newburgh, Op.Cit., bk. 2, ch.23:2
(104) William of Newburgh, Loc. Cit.
قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، الكويت، شوال 1410 هـ./ مايو 1990 م.، ص 139 .
(105) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 2, ch. 23: 1.
(106)فيما يتعلق بالمعلومات التي ساقها المؤرخ وإضافة إلى ما ذكره من وجود مدينة بابل في بلاد الرافدين، فمن الثابت أيضا أنه توجد في مصر مدينة تسمى بابليون, وكذلك عرفت مدينة روما- في القرن الأول الميلادي - باسم بابل؛ لبذخها واضطهادها للمسيحيين الأوائل، ومن الثابت تاريخياً أن ملك بابل الكلدانية نابوبلاسر قضى على نينوى – عاصمة مملكة آشور القوية- عام 612 ق.م. وساعده على ذلك فيضان دجلة, وكانت نينوى قد اعتبرت العالم القديم كله عبدا لها, ولعل أقدم تاريخ يشير إلى قيام المملكة هو 2900 ق.م.، مما يشير إلى أن عمرها يزيد عن الألف عام كما ذكر المؤرخ. أما قمبيز فقد غزا مصر عام 525 ق.م. في عهد بسمتك الثالث، الأسرة 26، واعتبر مصر ولاية فارسية. وللمزيد راجع: بطرس عبد الملك وآخرون: المرجع السابق، مواد: بابل، نينوى، آشور؛ الموسوعة المصرية: إشراف: أحمد فخري وآخرين، المجلد الأول، (تاريخ مصر القديمة وآثارها)، القاهرة،

1960 م.، جـ1، مادة: قمبيز .

(107) William of Tyre, Op.Cit., vol. II,pp.303 - 304.

(108) Baldwin, W. Marshall, The Latin States under Baldwin III and Amalric I (1143 – 1174),ed. in: A History of the Crusades,by: Setton,K.M.,vol. I,1 st ed.,U.S.A., 1958, (pp.523 - 563), pp.550 - 551.

راجع: ابن شداد، (ت 1234 م.) القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن تميم بن عتبة: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسيفية، أو سيرة صلاح الدين، تحقيق د. جمال الدين الشيال، طبعة أولى, القاهرة، 1964 م.، ص 26- 27؛ ابن الأثير: المصدر السابق، جـ11، ص 301؛ أبو شامة، (ت 1267 م) شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن ابن إسماعيل: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، جزءان، بيروت (د. ت. )، جـ1، ص 142- 145 .

(109) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 2, ch. 23: 2.

(110)Ibid, bk. 2, ch. 23: 2- 3.; William of Tyre, Op.Cit., vol. II, pp.205 - 207, 307.

ابن شداد: المصدر السابق، ص 27- 30.

(111) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 2, ch. 23: 2, bk. 3, ch. 11: 3.

(114)ابن جبير: (ت 1217 م.) أبو الحسن محمد بن أحمد الأندلسي: رحلة ابن جبير المسماة تذكرة الأخبار في اتفاقيات الأسفار، تحقيق: حسين نصار، القاهرة، 1955 م, ص 199.

(115) William of Tyre, Op.Cit.,vol. II,pp.304 - 307,309 - 310.

(116)كانت طائفة الإسماعيلية الباطنية (الحشيشية) قد استحوذت على بانياس لبضع سنوات تحت قيادة هذا الزعيم، انتهت بتسليمها للفرنج عام 1129 م.، ولمزيد من التفاصيل راجع: ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 221؛ ابن الأثير: المصدر السابق،

جـ10، ص29؛ انظر أيضا Grousset,R.,Op.Cit.,vol. II,p.661.

(117)William of Tyre, Op.Cit.,vol. II,pp.308 - 309;cf. also Runciman, S., Op.Cit., vol. II, pp.368 - 369 .

(118) Schlumberger,G.,Campagnes du roi Amaury I de Jérusalem en Egypte, Paris, 1906, pp.101 - 102 .

(119)William of Newburgh, Op.Cit., bk. 2, ch. 23: 2- 3 .

(120)William of Tyre, Op.Cit.,vol. II,pp.317 - 318.

انظر أيضا: ابن الأثير: المصدر السابق، جـ11، ص 324– 327، وكذلك: أبو شامة، المصدر السابق، جـ1، ص143.

(121) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 2, ch. 23: 3.

(122) William of Tyre, Op.Cit., pp.318 - 322.

وفضلا عمّا ورد عند وليم الصوري عن بنود الاتفاقية، يمكن مراجعة دراسة اهتمت بالظروف التي أحاطت إبرامها، وناقشت مآرب الصليبيين منها في:

Schlumberger,G.,Op.Cit., pp.115 – 117.

(123) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 2, ch. 23: 3 - 4.

(124) William of Tyre,Op.Cit.,vol. II,pp.323 - 327,331 - 334.

(125)ابن الأثير: المصدر السابق، جـ11، ص 327.

(126)William of Newburgh, Op.Cit., bk. 2, ch. 23: 4.

(127) William of Tyre, Op.Cit.,vol. II, pp.334 - 335, 337 - 343.

(128) يقع هذا الفصل تحت عنوان: "عن وصول بطريرك إنجلترا، وعن وفاة ملك بيت المقدس... وفترة حكم ابنه... وعن صلاح الدين". انظر:

William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 10: 12.

ويلاحظ أن السياق التاريخي عند المؤرخ في هذا الفصل مضطرب إلى حد ما؛ نظرا لأنه اشتمل على ذكر أحداث وقعت على مدى عقدين من الزمان دون لترتيب، وهذا الأمر سيأخذه في الاعتبار في الصفحات التالية.

(129)Idid, bk. 3, ch. 10: 2 .

(130)انتقل إقطاع شرقي الأردن إلى ستيفانى أف ميللى ابنة فيليب أف ميللى Philip of Milly بداية من عام 1167 م./562 هـ. كوريثة لممتلكات أمها المتوفاة وأبيها الذي سلك الرهبنة عام 1166 م./ 561 هـ.، وأصبح مقدما لفرسان الداوية، ولمعرفة المزيد انظر:

Tibble, Steven, Monarchy and Lordships in the Latin Kingdom of Jerusalem, Oxford, 1989, pp.88 -89 .

(131) William of Tyre, Op.Cit.,vol. II, pp.401, 416 - 417

(132)William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 10: 2 .

(133)Idem.

(134) Idem.

لا شك أن شخصية نور الدين محمود قد اقترنت بصحوة القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي في الجهاد ضد الصليبيين المرتكن إلى صحة العقيدة ورغبة الجهاد في سبيل الله والسعي للوحدة الإسلامية، وجاء لكي يمثل أهم حلقات الكفاح الإسلامي في هذه المرحلة، وأبدى عبقرية سياسية وإدارية وعسكرية لتحقيق أهدافه النضالية ضد الصليبيين. وهناك أكثر من دراسة متخصصة عنه ومنها: حسين مؤنس: نور الدين محمود سيرة مجاهد صادق، الطبعة الأولى، القاهرة، 1959 م.؛ حسن حبشي: نور الدين والصليبيون, القاهرة, 1951 م.

(135)William of Newburgh, Op.Cit., bk.3, ch. 10: 2.

(136) ابن واصل، (ت1298 م.) جمال الدين محمد بن سالم: مفرج الكروب في أخبار

بنى أيوب، جـ1- 3، تحقيق: د. جمال الدين الشيال، القاهرة 1953- 1960 م.، جـ1، ص 168- 218.

(137) أبو شامة: المصدر السابق، جـ1، ص 207؛ ابن شداد: المصدر لسابق، ص 50؛ أبو الفدا: (ت 732 هـ./1331 م.) إسماعيل بن علي محمود، الملك المؤيد صاحب حماة: المختصر في أخبار البشر، أربعة أجزاء في مجلدين، بيروت (د. ت.), جـ3، ص 56. راجع أيضا:Idem .

(138) Idem.

يستأنف المؤرخ في موضع آخر الحديث عن شخص صلاح الدين، ويضيف أنه رغم عدم انتمائه إلى سلالة ملكية إلا أنه تمكن ببراعته وحنكته من تأسيس تلك الدولة الشاسعة، ونجح في إحباط محاولات كل قادة الغرب في النيل من البلاد، بيد أنه عند وفاته تم تقسيم إمبراطوريته وفقا لعدد من خلفوه، الأمر الذي جلب الفوضى والتناحر في بيته. عن ذلك راجع Ibid, bk. 3, ch. 10: 2.

(139) وضعه تحت عنوان: " كيف تم التغلب على صلاح الدين وكيف انتصر هو بعد ذلك ". انظر:

William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 11: 1 - 4.

(140) بمراجعة المصادر المعاصرة الأخرى يتبين أن مدينة Hareng الواردة ذكرها في النص ما هي إلا مدينة حارم الواقعة على بعد ثمانية وخمسين كيلو مترا غربي حلب، وكانت آنذاك في حوزة الصالح إسماعيل بن نور الدين الذي نجح في اختراق صفوف المحاصرين بتجريدة إلى المدينة. أنظر:

William of Tyre, Op.Cit., pp.424 - 425, 436 - 445.

؛ ابن العديم, (ت1262 م.) كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة: زبدة الحلب في تاريخ حلب، 3 ج، تحقيق: سامي الدهان، دمشق 1951 م.،

جـ2، ص 25 - 26؛ ابن الأثير: المصدر السابق، جـ11، ص 442- 443.

(141) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 11: 1.

(142) William of Tyre, Op.Cit., pp.417 - 420.

وعن الظروف التي أحاطت بخروج حملة فيليب من الغرب الأوروبي راجع:

Roger of Hovden, Op.Cit.,vol. I, pp.438 - 439, 452., cf. also, Macintyre, A.D., Williams, A.D., Henry II of England and the Holyland, ed. In English Historical Review, vol. XCVII, London, 1982, p.726 .

(143) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 11: 1 .

(144) يمكن مراجعة التفاصيل الخاصة بالخطط المتبعة وتحركات الجيشين الإسلامي والصليبي وما وقع من هزيمة لجيش صلاح الدين في تلك المعركة في:

William of Tyre, Op.Cit.,vol. II, pp.425 - 429; Michel le Syrien, Op.Cit.,vol. III, p.373 .

العماد الأصفهانى، (ت 1200 م.) عماد الدين محمد بن محمد ابن حامد: البرق الشامي، جـ 3، تحقيق: د. مصطفى الحيارى، الطبعة الأولى، عمان- الأردن، 1987 م.، ص 54 - 55؛ ابن الأثير: المصدر السابق، جـ11، ص 443؛ أبو شامة: المصدر السابق، جـ1، ص 273.

(144)William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 11: 2; Runciman, S., Op.Cit.,vol. II, p.418.

(145) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 11: 2.

(146)عرفها الفرنج كذلك باسم قلعة بيت الأحزان وهى تقع عند المجرى الأعلى لنهر الأردن بين بحيرة الحولة وبحيرة طبرية. ولمعرفة المزيد عن الحالة الأمنية في هذه المنطقة الحدودية راجع: على أحمد السيد: إمارة الجليل تحت حكم اللاتين ودورها السياسي في الصراع الصليبي الإسلامي في منطقة الشرق الأدنى الإسلامي (1099 - 1154 م)، رسالة

ماجستير تحت النشر، جامعة الإسكندرية، 1988 م.، ص 290 - 294. ومن ثم فالقلعة تقع في موقع متوسط بين صفد ودمشق وطبرية. وقد شرع الصليبيون في تشييدها في أكتوبر 1174 م. أتى أبو شامة ببعض تفاصيل المعمار وما بذل في القلعة من أعمال بناء، وأوضح أهميتها العسكرية والأمنية على طريق التجارة. للمزيد راجعه في: الروضتين، جـ2، ص8 - 13.

(147) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 11: 2- 3.

(148) William of Newburgh, Loc.Cit.; cf. also William of Tyre, Op.Cit., vol. II, pp.438 - 440 .

(149) William of Tyre, Op. Cit., vol. II, pp. 440 – 445.

أبو شامة: المصدر السابق، جـ2، ص 21- 23.

(150)William of Tyre, Op.Cit.,vol. II, pp.449 - 451 , 466 - 468

عقدت الهدنة في مايو 1180 م.. بشرط أن "المسافرين يسافرون"، وألا تنقطع حركة القوافل بين الشام ومصر. انظر: ابن أيبك الدواداري، (ت 1331 م.) أبو بكر عبد الله بن أيبك: كنز الدرر وجامع الغرر، 10ج, ووضع الجزء السادس بعنوان "الدرة المضيئة في أخبار الدولة الفاطمية"، تحقيق: صلاح الدين المنجد، القاهرة،1960 م.، ص 51. وللوقوف على تفاصيل المفاوضات، وتدقيق التواريخ الخاصة بالهدنة، راجع:

Nicholson,R.,Op.Cit.,pp.212 - 215 .

(151) العماد الأصفهاني: البرق الشامي، ج 5، تحقيق: فالح صالح حسين، الطبعة الأولى، عمان 1987 م.، ص 149 - 150؛ أبو شامة: المصدر السابق، جـ2، ص 50. راجع أيضا:

Ernoul, Op.Cit., pp.90 – 102 .

William of Newburgh,Op.Cit., bk. 3, ch. 10: 2, 111-112; William of Tyre,Op.Cit.,vol. II, pp.451-454 .

؛ نظرا William Montefratوالأمير وليم المذكور يعرف أيضا باسم وليم مونتيفرات لأنه أكبر أبناء ماركيز مونتيفرات، وهو من أغنى الأمراء في شمال إيطاليا، كما أنه كان ابن إمبراطور ألمانيا (Frederick I Barbarossa -1152عمة فريدريك الأول بربروسا 1189 م.) وخال الملك لويس السابع ملك فرنسا. انظر:

Runciman, S., Op.Cit.,vol. II, p.411 .

(152) الذي يقع تحت عنوان" عن جي ملك بيت المقدس ". انظر William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 16: 1.

(153) Loc.cit.

(154) Roger of Hovden, Op.Cit.,vol. I, pp.316 - 317.

(155)William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 10: 2.

(156) William of Tyre, Op.Cit.,vol. II, pp.402- 403.

(157)Ibid,vol. II, pp.446 - 447.

وردت تفاصيل أخرى عن قدوم جي لوزينان إلى الشرق بموجب دعوة من أخيه عموري لوزينان، وكذلك عن زواج جي من سيبيلا وتوليه يافا وعسقلان.

Ernoul, Op.Cit., pp.59 -60; cf. also Roger of Hovden, Op.Cit.,vol. II, p.55 .

(158)William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 16: 1.

(159) الجدير بالذكر أن ما أشار إليه وليم أف نيوبره من انقسام بين نبلاء بيت المقدس كان موضع اهتمام جانب من المؤرخين الصليبيين وبالذات وليم الصوري، وعليه اتجهت بعض الدراسات المتخصصة في تاريخ

حزبين في المملكة في العقد الأخير من عمرها، ضم الأول نبلاء أسرة إبلين إضافة إلى الأمير ريموند الثالث الوصي على العرش وجانبا كبيرا من فرسان الإسبتارية، أما الحزب الثاني فضم أمراء أسرة كورتناي الذين دعموا موقفهم بالسعي لتعيين هرقل بطريركا للمملكة عام 1180

م. على حساب وليم الصوري المرشح الأقوى للمنصب، فضلا عن ضم طائفة فرسان الداوية وأمراء لوزينان ورينو أف شاتيون Renauld of Châtillon حاكم ما وراء الأردن (1177 - 1187 م. ). انظر:

William of Tyre, Op.Cit.,vol. II, pp.449 - 451, 458 - 460; Ernoul, Op. Cit., p.115; Runciman, S., Op.Cit.,vol. II, pp. 425, 447 - 449; Tibble, S., Op.Cit., pp. 51-59; Nicholson, R., Op.Cit. pp.56 -99 .

(160)William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 10: 1 .

وضع أحد المؤرخين الحديثين المتخصصين في تاريخ الإنجليز عصر الملك هنري الثاني Henry II تاريخ سفارة هرقل إلى الملك في العام التالي 1185 م. انظر:

Warren, W.L., Op.Cit., p.221 .

(161) Roger of Hovden, Op.Cit.,vol. II, p.46

وهناك من يشير إلى أن سفارة هرقل كانت بهدف إشعال حماسة قادة أوروبا بغرض الدعوة لقيام حملة صليبية كبيرة، وبدليل أن برنامجها شمل زيارة البابوية في روما والإمبراطور الألماني فريدريك (الأول) باربا روسا Frederick I Barbarossa(1152-1190م وملك فرنسا فيليب (الثاني) أغسطس Philip II Augustus (1123-1180م )، فضلا عن الملك الإنجليزي هنري الثاني. ولمعرفة المزيد عن ذلك راجع:

Macintyre, A.D., Williams, A.D., Op.Cit., pp.731 -732.

هذا وقد تم تصحيح ما أورده المؤرخ روجر أف هوفدن في المتن من أن فولك أف أنجو أخ لجيوفرى والد الملك هنري، في حين أنه والده.

(162) William of Newburgh, Op.Cit.,bk. 3, ch. 16: 1.

(163) Roger of Hovden, Op.Cit.,vol. II, pp. 62-63; Ernoul, Op.Cit., p.134 .

(164) العماد الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق: محمد محمود صبيح، القاهرة، 1965 م.، ص 68؛ ابن الأثير، المصدر السابق، جـ11، ص 526 - 527.

(165) Ernoul, Op.Cit., pp.141 - 142.

(166)Roger of Hovden, Op.Cit.,vol. II, pp.62-63.

(167) ويقع تحت عنوان: "أحقية السيادة على أراضي بيت المقدس والتي على أساسها يتم ابتلاع أهليها". انظر:

William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 15: 1 - 6.

Idem.

(168)تقع عيون كريسون بين صفورية وكفر قنه في الجليل. ويمكن مراجعة تفاصيل هذه المعركة– التي شهدت مذبحة مروعة بين فرسان الداوية– في:

Runciman, S., Op.Cit.,vol. II, pp.453 - 454

(169) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 16: 2; Roger of Hovden,vol. II, pp.64 - 65; Ernoul, Op.Cit., p.133

(170) William of Newburgh, Loc.Cit

ويستشهد المؤرخ في هذا الموضع بالتوراة فيما نصه:" وَيُمْحَى عَهْدُكُم مع الموت ولا يَثْبُت ميثاقكم مع الهاوية. السَّوط الجارف إذا عبر تكونون له لِلدَّوْس". راجع: سفر أشعياء, 18:28.

(171) Roger of Hovden, Op.Cit.,vol. I, pp.355 - 357; cf. also Macintyre, A.D., Williams, A.D., Op.Cit., pp.723, 725 .

(172)Roger of Hovden, Op.Cit.,vol. II, pp.46, 90 -91; Macintyre, A.D., Williams, A.D., Op.Cit., pp.726 -732.

ولد توماس بكت في عام 1118 م. وكان أقرب الأصدقاء إلى هنري الثاني، وتغير حاله معه

بعد تعيينه رئيسا لأساقفة كانتربوري Canterbury عام 1162 م.، وظن أربعة من فرسان الملك أنه يريد قتله؛ فقتلوه في عام 1170 م.، وتركت هذه الحادثة أثرا غائرا في نفس الملك، وحاول بسبل عدة التكفير عن ذنبه. راجع:

Warren, W.L., Op.Cit., pp.104 - 111; Warner, G.T. & Martin, C.H.K., The Groundwork of British History, Part I (55 B.C.- 1603), London, pp.85 - 89

الموضوع تحت عنوان: "حول معركة الجيش المسيحي، وأسر الملك مع الصليب المقدس"،

William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 17: 1 - 3.

(173) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 17: 3 .

(174) ومما ذكره ابن الأثير عن مصير بيروت لاحقا أنه رغم حصانتها الشديدة إلا أنها لم تصمد؛ لأن المدافعين عنها كانوا من التجار وأصحاب الحرف، ولم يكن من بينهم فرسان، مما أدى إلى استسلامها عند غزوها في السادس من أغسطس 1187 م. انظر: الكامل في التاريخ، جـ11، ص 540 – 543؛ راجع أيضا: سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، جـ8، ق 1، ص 433.

(175) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 17: 2 .

(176) Roger of Hovden, Op.Cit.,vol. II, p.66.

(177) Grousset, R., Op.Cit.,vol. III, p.463.

(178) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 17: 2.; cf. also Ernoul, Op.Cit., pp.162 - 171 .

(179) Roger of Hovden, Op.Cit.,vol. II, pp.65 - 66.

William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 17: 3.

وتؤكد الروايات الصليبية الأخرى ما ورد عند مؤرخنا في هذا الصدد. وعن ذلك راجع أيضا:

Ernoul, Op.Cit., p.173; Roger of Hovden, Op.Cit.,vol. II, p.66 .

(180) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 17: 3.; cf. also Roger of Hovden, Op.Cit., vol. II, p.66.

ويلاحظ أن المؤرخ روجر قد أورد اسم رينو برسم مختلف وهو Raymond de Castiglione.

(181)William of Newburgh, Loc. Cit.

تؤكد دراسة خصصت لرينو أف شاتيون ودوره في الحروب الصليبية على أنه ينتمي إلى مدينة شاتيون الفرنسية، جاء إلى الشرق مع حملة الملك لويس السابع المعروفة بالثانية 1148 م.، وتولى حكم إمارة إنطاكية من خلال زواجه من أميرتها الأرملة كونستانس Constance، وساهم في إسقاط عسقلان في 1153 م.، وضم إليه حكم حارم مع إنطاكية في 1158 م. لكنه وقع أسيرا في يد نور الدين 1160 م. وخرج من الأسر عام 1176 م.، وبزواجه من ستيفانى أف ميللى Stephanie of Mili أصبح حاكما على إقليم شرقي الأردن بداية من عام 1177 م.، راجع:

Schlumberger, G., Renaud de Châtillon, prince d'Antioche, seigneur de la terre d'Outre-Jourdan, 2nd ed., Paris, 1920, bassim.

(182)Grousset, R., Op.Cit.,vol. II, p.729.

سعيد عاشور: المرجع السابق، جـ1، ص 506.

(183)كان رينو قد أرسل في عام 1155 م. بعض السفن إلى جزيرة قبرص الخاضعة للبيزنطيين، فتمكنت من الإغارة عليها ونهبها وإنزال الأذى بأهلها، مما أثار استنكار المسيحيين عامة ولقبوه باللص. راجع:

William of Tyre,vol. II, pp.253 - 254; Michel le Syrien, Op.Cit.,vol. III, p.315.

انظر: سعيد عبد الفتاح عاشور: قبرص والحروب الصليبية، الطبعة الأولى، القاهرة، 1957م.، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2002 م. ص 12.

(184)Hamilton, B., The Elephant of Christ, Reynald of Chatillon, ed. in: Monastic Reform Catharism and the Crusade 900 - 1300,Varior.Repr., (pp. 97 - 108), London, 1979, pp. 99 - 100.

(185) وجاء تحت عنوان: " كيف استولى صلاح الدين على أرض الميعاد والمدينة المقدسة "، William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 18: 1 - 2.

(186) Ibid, bk. 3, ch. 18: 1.

أفاضت بعض المصادر الإسلامية وأيضا الأوروبية في الحديث عن الفتوحات الصلاحية فترة ما قبل فتح القدس وما بعدها، ولعل عرض المؤرخ ابن واصل مثلا يقدم حصرا شاملا ودقيقا للفتوحات الأولى، فانطلاقا من عكا ضم صلاح الدين مدن وقلاع الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا وشقيف- أرنون والفولة وجبل الطور وبيروت، وقام قادته بالاستيلاء على يافا وسبسطية وتبنين التي لقيت دعما منه في إسقاط قلعتها، في حين استسلمت مدن مثل صيدا وجبيل، وفى الجنوب تم الاستيلاء على الرملة وبينا والداروم وغزة والنطرون وبيت جبرين ثم الخليل وعسقلان، ذلك فضلا عمّا سيلي القدس من فتوحات. راجع: ابن واصل: المصدر السابق، جـ2، ص 202- 209.

Roger of Hovden, Op.Cit.,vol. II, pp.66 - 67.

(187)William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 8, ch. 25.

(188) Ibid, bk. 3, ch. 18: 2.

(189) ابن واصل: المصدر السابق، جـ2، ص 209.

Mayer, H.E., The Crusader Lordship of Kerak and Shaubak, some preliminary remarks, in: Studies in the History and Archeology of Jordan,3 Vols., vol. III, (pp.197 - 203), Aman, 1987, p.202.

(190) Ernoul, Op.Cit., pp.185, 231 - 232

انظر أيضا ابن الأثير: المصدر السابق، جـ11، ص 547.

(191) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 18: 1

ابن شداد: المصدر السابق، ص 81- 82؛ أبو شامة: المصدر السابق، جـ2، ص 92؛ ابن الأثير: المصدر السابق، جـ11، ص 549؛ العماد الأصفهانى: الفتح القسي، ص 206- 207.

(192) William of Newburgh, Loc.Cit.

(193) يكتفي بالإشارة إلى ما ورد في جانب من المصادر الإسلامية وإحدى الدراسات

الحديثة لأحد الباحثين الأوروبيين عن سطوع نجم صلاح الدين في كرمه أثناء فتحه للقدس. انظر: أبو شامة، المصدر السابق، جـ2، ص 96؛ العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص 206 - 207.؛

Richard, J., About an account of the battle of Hattin, ed. in: Speculum XXVII, 1952, referring to the Frankish mercenaries in oriental Moslem states, Cambridge, 1976, p.170 .

(194) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 18: 1.

(195) وللاستزادة عن ذلك الموضوع، راجع: على أحمد محمد السيد: أهم التطورات في أبنية القدس الدينية منذ الغزو الصليبي حتى استرداد المسلمين لها (1099 - 1187 م.)، بحث منشور في مجلة كلية الآداب، جامعة المنوفية، أغسطس 1995 م.، ص 78.

(196) أبو اليمن العليمي، (ت 1522 م) أبو اليمن عبد الرحمن بن مجير الدين: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، جزءان، بيروت، 1973 م.، جـ1، ص 293.

(197) ابن الأثير: المصدر السابق، جـ11، ص 551 - 552.

(198) عماد الدين الأصفهاني: الفتح القسي، ص 137.

Roger of Hovden, Op.Cit.,vol. II, p.90.

(199) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 18: 2.

(200)بنيامين التطيلي: رحلة بنيامين التطيلي، ترجمة عزرا حداد، بغداد، 1945 م.، ص 98 -99. راجع أيضا:

Theoderick, Description of the Holy Places, 1172 A.D., trans. by: Aubrey Stewart, in: Palestine Pilgrim's Text Society, vol. V, London, 1894, p.22.; William of Tyre, Op.Cit.,vol. II, pp.242 – 245

(201) Idem.

(202) يضيف المؤرخ في موضع آخر عن صور وصفا لها، فيشير إلى وضعها كجزيرة ربطها الإسكندر الأكبر باليابس، ولذا فقد أحاطت بها المياه من كل جانب تقريبا، كما أن ميناءها يتمتع بالأمان التام، مما جعلها من أحصن المدن. راجع ما ورد في الفصل العشرين من

الكتاب الثالث من المدونة، الموضوع تحت عنوان: "حصار صور وعودة الملك من الأسر".
William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 20: 1 - 2.
حكم نبوخذ نصر بلاد ما بين النهرين وسوريا، واستأنف الصراع على فلسطين مع فرعون مصر، وهاجمها عدة مرات، وسبى كثير من سكانها، وهاجم مدن الساحل الفينيقي ومنها صور، ويرجع له الفضل في تشييد حدائق بابل المعلقة، وقد وردت أخباره كثيرا في الكتاب المقدس. راجع: بطرس عبد الملك وآخرون: المرجع السابق، مادة: نبوخذ نصر.
(203) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 18: 2, ch. 20: 1 .

(204) ابن شداد: المصدر السابق، ص 126.
(205) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 19: 2, ch. 20: 1.
وقد أورد المؤرخ وليم أف نيوبره تفصيليا دور الماركيز كونراد أف مونتيفرات في تكتيل جهود الصليبيين لحماية المدينة من أخطار صلاح الدين في هذا الموضع أيضا.
(206) Idem .
حسين عطية: إمارة إنطاكية الصليبية والمسلمون، ص 166، 210 – 211؛ وقد حدد المؤرخ ابن العديم تاريخ وفاة ريموند الممتد بين 6 سبتمبر و5 أكتوبر 1187 م.،انظر: زبدة الحلب، جـ3، ص 94.
سعيد عاشور: المرجع السابق، جـ2، ص651.
(207) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 20: 2.
(208) ابن شداد: المصدر السابق، ص 86- 94؛ العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص 230- 231، 258- 262؛ راجع أيضا: حسين عطية، المرجع السابق، ص 213- 220.
(209) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 15: 2 – 4
(210) الموضوع تحت عنوان: "عن اغتيال الماركيز كونراد". آنظر:
William of Newburgh, Op.Cit., bk. 4, ch. 24: 1 - 3.
(211) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 4, ch. 24: 2 .

(212)انشق إسماعيلية الشام عن الفاطميين بعد موت الخليفة المستنصر الفاطمي (ت 1094 م.)، ونادوا بإمامة ابنه نزار وبطلان إمامة ابنه الآخر المستعلي الذي ظل أتباعه في مصر ينتمون إليه، وقد عرف فرع الشام باسم الحشيشية أيضا، ونجح الحشاشون في تأسيس مملكة لهم حول مجموعة من القلاع عرفت بقلاع الدعوة، وذلك أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، مستغلين الفوضى التي سادت منطقة الشرق الأدنى الإسلامي والصراعات بين القوى الثلاث: الفاطمية والسلجوقية والصليبية. راجع: جوزيف نسيم يوسف: العدوان الصليبي على بلاد الشام، ص 226؛ وقد بلغت هذه الطائفة درجة كبيرة من الانحلال الخلقي حتى ذاق الصليبيون والمسلمون جميعا من جرائمهم الشيء الكثير، وكان مقدمهم بداية من عام 1169 م. هو راشد الدين سنان البصري، ولقبه الشيخ، وهو الذي نظم تلك الهيئة وأعطاها طابعها المفزع. انظر: أسامة زكى زيد: الصليبيون وإسماعيلية الشام في عصر الحروب الصليبية( القرن الثاني عشر الميلادي )، الإسكندرية، 1980 م.، ص44 - 57، 155 - 168.

William of Tyre, Op.Cit.,vol. II, pp.389 - 393.

William of Newburgh, Loc.Cit .

من الثابت أن هناك معاهدة كانت قد وقعت بالفعل بين الحشيشية والداوية، ومما يؤكد ذلك أنهم طلبوا من الملك الصليبي عموري الأول في عام 1173 م. إسقاط الضريبة التي فرضتها عليهم الداوية بموجب هذه المعاهدة وقد بلغت ألفى دينار. انظر:

William of Tyre, Op.Cit.,vol. II, pp.391 - 392 .

William of Newburgh, Op.Cit., bk. 4, ch. 24: 3..

(213) Ibid, bk. 5, ch. 14: 6.

وهناك من المؤرخين الحديثين من يتفق مع الباحث في معظم ما خرج به من انطباعات عمّا دونه وليم أف نيوبره في كتابه. انظر:

Blakeley, L. Brian & Collins Jacquelin, Op.Cit.,vol. I, p.50.